مصطفى لطفي المنفلوطي

العبرات

تأليف
مصطفى لطفي المنفلوطي

المحتويات

إهداء

الأشقياء في الدنيا كثيرٌ، وليس في استطاعة بائسٍ مثلي أن يمحو شيئًا من بؤسهم وشقائهم، فلا أقل من أن أسكب بين أيديهم هذه العبرات، علَّهم يجدون في بكائي عليهم تعزيةً وسلوى.

مصطفى لطفي المنفلوطي

اليتيم

موضوعة

سكنَ الغرفة العليا من المنزل المجاور لمنزلي من عهد قريب فتًى في التاسعة عشرة أو العشرين من عمره، وأحسب أنه طالبٌ من طلبة المدارس العليا أو الوسطى في مصر، فقد كنت أراه من نافذة غرفة مكتبي، وكانت على كثبٍ من بعض نوافذ غرفته، فأرى أمامي فتًى شاحبًا، نحيلًا، منقبضًا، جالسًا إلى مصباح منير في إحدى زوايا الغرفة، ينظر في كتاب، أو يكتب في دفتر، أو يستظهر قطعةً، أو يُعيد درسًا، فلم أكن أحفل بشيءٍ من أمره.

حتى عُدتُ إلى منزلي منذ أيامٍ بعد منتصف ليلةٍ قَرَّةٍ من ليالي الشتاء، فدخلت غرفةَ مكتبي لبعض الشئون، فأشرفتُ عليه، فإذا هو جالسٌ جِلسته تلك أمام مصباحه، وقد أكبَّ بوجهه على دفترٍ منشور بين يديه على مكتبه، فظننتُ أنه لمَّا ألمَّ به من تعب الدرس وآلام السهر، قد عَبِثَتْ بجفنيه سِنةٌ من النوم، فأعجلته من الذهاب إلى فراشه، وسقطت به مكانه، فما رُمْتُ مكاني حتى رفع رأسه، فإذا عيناه مخضلَّتان من البكاء، وإذا صفحة دفتره التي كان مكبًّا عليها قد جرى دمعه فوقها، فمحا من كلماتها ما محا، ومشى ببعض مِدادها إلى بعض، ثم لم يلبث أن عاد إلى نفسه، فتناول قلمه، ورجع إلى شأنه الذي كان فيه.

فأحزنني أن أرى في ظلمة ذلك الليل وسكونه هذا الفتى البائس المسكين منفردًا بنفسه في غرفة عارية باردة! لا يتقي فيها عادية البرد بدثارٍ ولا نارٍ، يشكو همًّا من هموم

الحياة أو رُزءًا من أرزائها، قبل أن يبلغ سن الهموم والأحزان، من حيث لا يجد بجانبه مواسيًا ولا معينًا.

وقلت: «لا بد أن يكون وراء هذا المنظر الضارع الشاحب نفسٌ قريحةٌ معذبةٌ تذوب بين أضلاعه ذوبًا، فيتهافت لها جسمه تهافت الخِباء المقوَّض.»

فلم أزل واقفًا مكاني لا أبرحه، حتى رأيته قد طوى كتابه وفارق مجلسه، وأوى إلى فراشه، فانصرفتُ إلى مخدعي، وقد مضى الليل إلا أقله، ولم يبقَ من سواده في صفحة هذا الوجود إلا بقايا أسطر يوشك أن يمتد إليها لسان الصباح فيأتي عليها.

ثم لم أزل أراه بعد ذلك في كثيرٍ من الليالي إما باكيًا، أو مُطرِقًا، أو ضاربًا برأسه على صدره، أو منطويًا على نفسه في فراشه يئن أنين الوالهة الثكلى، أو هائمًا في غرفته يذرع أرضها، ويمسح جدرانها، حتى إذا نال منه الجهد سقط على كرسيه باكيًا منتحبًا، فأتوجع له، وأبكي لبكائه، وأتمنى لو استطعتُ أن أُداخله مداخلة الصديق لصديقه، وأستبثه ذات نفسه وأشركه في همِّه، لولا أنني كرهتُ أن أفجأه بما لا يُحب، وأن أهجم منه على سرٍّ ربما كان يؤثر الإبقاء عليه في صدره، وأن يكاتمه الناس جميعًا.

حتى أشرفت عليه ليلة أمس بعد هدأةٍ من الليل، فرأيتُ غرفته مظلمةً ساكنة، فظننت أنه خرج لبعض شأنه، ثم لم ألبث أن سمعت في جوف الغرفة أنَّةً ضعيفة مستطيلة، فأزعجني مسمعها، وخيِّل إليَّ، وهي صادرة من أعماق نفسه، كأنني أسمع رنينها في أعماق قلبي، وقلت: «إن الفتى مريض ولا يوجد بجانبه من يقوم بشأنه، وقد بلغ الأمر مبلغ الجد فلا بد لي من المسير إليه.»

فتقدَّمتُ إلى خادمي أن يتقدَّمني بمصابيح، حتى بلغتُ منزله، وصعدتُ إلى باب غرفته، فأدركني من الوحشة عند دخولها ما يُدرك الواقف على باب قبر، ويحاول أن يهبطه ليودِّع ساكنه الوداع الأخير.

ثم دخلتُ ففتح عينيه عندما أحس بي، وكأنما كان ذاهلًا أو مستغرقًا، فأدهشه أن يرى بين يديه مصباحًا ضئيلًا ورجلًا لا يعرفه، فلبث شاخصًا إليَّ هنيهةً لا ينطق ولا يطرف، فاقتربتُ من فراشه وجلستُ بجانبه، وقلت: «أنا جارك القاطن هذا المنزل، وقد سمعتك الساعة تعالج نفسك علاجًا شديدًا، وعلمت أنك وحدك في هذه الغرفة؛ فعناني أمرك؛ فجئتك علَّني أستطيع أن أكون لك عونًا على شأنك، فهل أنت مريض؟»

فرفع يده ببطء، ووضعها على جبهته، فوضعتُ يدي حيث وضعها، فشعرت برأسه يلتهب التهابًا فعلمت أنه محموم، ثم أمررتُ نظري على جسمه فإذا خيالٌ سارٍ لا يكاد يتبينه رائيه، وإذا قميص فضفاض من الجلد يموج فيه بدنه موجًا.

فأمرت الخادم أن يأتيني بشرابٍ كان عندي من أشربة الحمى، فجرَّعتُه منه بضع قطرات، فاستفاق قليلًا ونظر إليَّ نظرةً عذبةً صافيةً، وقال: «شكرًا لك.»

فقلت: «ما شِكاتُك أيها الأخ؟»

قال: «لا أشكو شيئًا.»

فقلت: «فهل مرَّ بك زمن طويل على حالك هذه؟»

قال: «لا أعلم!»

قلت: «أنت في حاجة إلى الطبيب، فهل تأذن لي أن أدعوه إليك لينظر في أمرك؟»

فتنهَّد طويلًا ونظر إليَّ نظرةً دامعةً، وقال: «إنما يبغي الطبيبَ من يُؤثر الحياة على الموت!»

ثم أغمض عينيه، وعاد إلى ذهوله واستغراقه، فلم أجد بدًّا من دعاء الطبيب رضي أم أبى، فدعوته، فجاء متأفِّفًا متذمِّرًا، يشكو — من حيث يعلم أني أسمع شكواه — إزعاجه من مرقده وتجشيمه خوض الأزقة المظلمة في الليالي الباردة! فلم أحفل بتعريضه؛ لأنني أعلم طريق الاعتذار إليه؛ فجسَّ نبض المريض وهمس في أذني قائلًا: «إن عليلك يا سيدي مشرفٌ على الخطر، ولا أحسب أن حياته تطول كثيرًا إلا إذا كان في علم الله ما لا نعلم.»

وجلس ناحيةً يكتب ذلك الأمر الذي يصدره الأطباء إلى عمَّالهم الصيادلة أن يتقاضوا من عبيدهم المرضى ضريبة الحياة، ثم انصرف لشأنه بعدما اعتذرتُ إليه ذلك الاعتذار الذي يؤثره ويرضاه.

فأحضرتُ الدواء، وقضيت بجانب المريض ليلةً ليلاء، ذاهلة النجم، بعيدة ما بين الطرفين، أسقيه الدواء مرةً، وأبكي عليه أخرى، حتى انبثق نور الفجر؛ فاستفاق ودار بعينيه حول فراشه حتى رآني، فقال: «أنت هنا؟»

قلت: «نعم، وأرجو أن تكون أحسن حالًا من ذي قبل.»

قال: «أرجو أن أكون كذلك.»

قلت: «هل تأذن لي يا سيدي أن أسألك من أنت؟ وما مقامك وحدك في هذا المكان؟ وهل أنت غريب في هذا البلد أو أنت من أهليه؟ وهل تشكو داءً ظاهرًا أو همًّا باطنًا؟»

قال: «أشكوهما معًا.»

قلت: «فهل لك أن تحدِّثني بشأنك وتفضي إليَّ بهمك كما يفضي الصديق إلى صديقه، فقد أصبحت معنيًّا بأمرك عنايتك بنفسك؟»

قال: «هل تعدني بكتمان أمري إن قَسَمَ الله لي الحياة، وبإمضاء وصيَّتي إن كانت الأخرى؟»

قلت: «نعم.»

قال: «قد وثقت بوعدك، فإن من يحمل في صدره قلبًا شريفًا مثل قلبك لا يكون كاذبًا ولا غادرًا.

أنا فلان بن فلان، مات أبي منذ عهدٍ بعيد، وتركني في السادسة من عمري فقيرًا معدِمًا لا أملك من متاع الدنيا شيئًا، فكفلني عمي فلان، فكان خير الأعمام، وأكرمهم، وأوسعهم برًّا وإحسانًا، وأكثرهم عطفًا وحنانًا، فقد أنزلني من نفسه منزلةً لم ينزلها أحدًا من قبلي غير ابنته الصغيرة، وكانت في عمري أو أصغر مني قليلًا، وكأنما سرَّه أن يرى لها بجانبها أخًا بعدما تمنى على الله ذلك زمنًا طويلًا فلم يدرك أمنيته، فعُنِيَ بي عنايته بها، وأدخلنا المدرسة في يوم واحد، فأنِستُ بها أنس الأخ بأخته، وأحببتها حبًّا شديدًا، ووجدت في عشرتها من السعادة والغبطة ما ذهب بتلك الغضاضة التي كانت لا تزال تعاود نفسي بعدَ فَقْدِ أبويَّ من حينٍ إلى حين.

فكان لا يرانا الرائي إلا ذاهبَيْن إلى المدرسة أو عائدَيْن منها، أو لاعبَيْن في فناء المنزل، أو مُرْتَاضَيْن في حديقته، أو مجتمعَيْن في غرفة المذاكرة، أو متحدِّثَيْن في غرفة النوم، حتى جاء يوم حجابها فلزمت خِدرَها واستمررتُ في دراستي.

ولقد عقد الود بين قلبي وقلبها عقدًا لا يحله إلا رَيْبُ المنون، كنت لا أرى لذة العيش إلا بجوارها، ولا أرَى نُورَ السعادة إلا في فجر ابتساماتها، ولا أؤثرُ على ساعة أقضيها بجانبها جميع لذات العيش ومَسَرَّات الحياة، وما كنت أشاء أن أرى خَصْلة من خصال الخير في فتاة من: أدب، أو ذكاءٍ، أو حلمٍ، أو رحمةٍ، أو عفَّةٍ، أو شرفٍ، أو وفاءٍ إلَّا وجدتها فيها.

وإني أستطيع، وأنا في هذه الظلمة الحالكة من الهموم والأحزان، أن أرى على البعد تلك الأجنحة النورانية البيضاء من السعادة التي كانت تُظللنا معًا أيام طفولتنا؛ فتشرق لها نفسانا إشراق الرَّاح في كأسها.

وأن أرى تلك الحديقة الغنَّاء التي كانت مراح لذاتنا ومسرح آمالنا وأحلامنا، كأنها حاضرة بين يدي أرى لَأْلَاء مائها، ولمعان حَصْبَائها، وأفانين أشجارها، وألوان أزهارها.

وتلك القاعدة الحجرية التي كنا نقتعدها منها طرفي النهار، فنجتمع على حديثٍ نتجاذبه، أو طاقةٍ نُؤلِّف بين أزهارها، أو كتابٍ نُقَلِّب صفحاته، أو رسم نتبارَى في إتقانه.

وتلك الخمائل الخضراء التي نلجأ إلى ظلالها كلما فرغنا من شوط من أشواط المسابقة، فنشعر بما تشعر به أفراخ الطيور اللاجئة إلى أحضان أمهاتها.

وتلك الحفائر الصغيرة التي نحتفرها ببعض الأعواد على شاطئ الجداول والغُدْرَان فنملؤها ماءً، ثم نجلس حولها لنصطاد أسماكها التي ألقيناها فيها بأيدينا؛ فنطرب إن ظَفِرْنا بشيءٍ منها كأنَّا قد ظفرنا بغُنمٍ عظيم.

وتلك الأقفاص الذهبية البديعة التي كنا نربي فيها عصافيرنا وطيورنا، ثم نقضي الساعات الطوال بجانبها نعجب بمنظرها ومنظر مناقيرها الخضراء، وهي تحسو الماء مرةً وتلتقط الحب أخرى، ونناديها بأسمائها التي سميناها بها، فإذا سمعنا صفيرها وتغريدها ظننا أنها تُلَبِّي نداءنا.

ولا أعلم هل كان ما كنت أُضْمِرْهُ في نفسي لابنةِ عمي ودًّا وإخاءً، أو حبًّا وغرامًا؟ ولكنني أعلم أنه كان بلا أمل، ولا رجاء، فما قلت لها يومًا إني أحبها؛ لأني كنت أضنُّ بها — وهي ابنة عمي ورفيقة صباي — أن أكون أوَّل فاتح لهذا الجرح الأليم في قلبها، ولا قدرت في نفسي يومًا من الأيام أن أَصِل أسباب حياتي بأسباب حياتها؛ لأني كنت أعلم أن أبويها لا يسخوان بمثلها على فتى بائسٍ فقيرٍ مثلي، ولا حاولت في ساعةٍ من الساعات أن أتَسَقَّط منها ما يطمع في مثله المحبون المتسقِّطون؛ لأني كنت أجلُّها عن أن أنزل بها إلى مثل ذلك، ولا فكرت يومًا أن أستشف من وراء نظراتها خبيئة نفسها لأعلم أي المنزلتين أنزلها من قلبها: أمنزلة الأخ فأقنع منها بذلك، أم منزلة الحبيب، فأستعين بإرادتها على إرادة أبويها؟ بل كان حبي لها حب الراهب المتبتل صورة العذراء الماثلة بين يديه في صومعته، يعبدها ولا يتطلع إليها!

ولم يزل هذا شأني وشأنها، حتى نزلت بعمي نازلةٌ من المرض لم تنشب أن ذهبت به إلى جوار ربه، وكان آخر ما نطق به في آخر ساعات حياته أن قال لزوجته، وكان يُحسِن بها ظنًّا: لقد أعجلني الموت عن النظر في شأن هذا الغلام، فكوني له أمًّا كما كنتُ له أبًا، وأوصيك ألا يفقد مني بعد موتي إلا شخصي.

فما مرت أيام الحداد حتى رأيت وجوهًا غير الوجوه، ونظراتٍ غير النظرات، وحالًا غريبة لا عهد لي بمثلها من قبل، فتَداخَلَني الهمُّ واليأس، ووقع في نفسي للمرة الأولى في حياتي أنني قد أصبحت في هذا المنزل غريبًا، وفي هذا العالم طريدًا.

فإني لجالسٌ في غرفتي صبيحة يومٍ إذ دخلت عليَّ الخادم، وكانت امرأةً من النساء الصالحات المخلصات، فتقدَّمتْ نحوي خجلة متعثرة، وقالت: قد أمرتني سيدتي أن أقول لك يا سيدي إنها قد عزمت على تزويج ابنتها في عهد قريب، وإنها ترى أن بقاءك بجانبها بعد موت أبيها وبلوغكما هذه السن التي بلغتماها ربما يُريبها عند خطيبها، وإنها تريد

أن تتخذ للزوجين مسكنًا هذا الجناح الذي تسكنه من القصر، فهي تريد أن تتحول إلى منزلٍ آخر تختاره لنفسك من بين منازلها، على أن تقوم لك فيه بجميع شأنك، وكأنك لم تفارقها.

فكأنما عمدتْ إلى سهمٍ رائشٍ فأصْمَتْ به كبدي، إلا أنني تماسكت قليلًا ريثما قلت لها: «سأفعل إن شاء الله ولا أَحَبَّ إليَّ من ذلك.» فانصرفتْ لشأنها، فخلوتُ بنفسي ساعة أطلقت فيها السبيل لعَبَراتي، ما شاء الله أن أطلقها، حتى جاء الليل، فعمدتُ إلى حقيبتي فأودعتُها ثيابي وكتبي، وقلت في نفسي: «قد كان كل ما أسعد به في هذه الحياة أن أعيش بجانب ذلك الإنسان الذي أحببته وأحببت نفسي من أجله، وقد حيل بيني وبينه، فلا آسف على شيءٍ بعده.»

ثم انسللتُ من المنزل انسلالًا من حيث لا يشعر أحدٌ بما كان، ولم أتزوَّد من ابنة عمي قبل الرحيل غير نظرة واحدة ألقيتها عليها من خلال كِلَّتِهَا وهي نائمة في سريرها، فكانت آخر عهدي بها:

لَعَمْرُكَ مَا فَارَقْتُ بَغْدَادَ عَنْ قِلًى ... لَو انَّا وَجَدْنَا مِنْ فِرَاقٍ لَهَا بُدَّا
كَفَى حُزْنًا أَنْ رُحْتُ لَمْ أَسْتَطِعْ لَهَا ... وَدَاعًا، وَلَمْ أُحْدِثْ بِسَاكِنِهَا عَهْدَا

وهكذا فارقتُ المنزل الذي سعدتُ فيه حقبةً من الزمان فِراقَ آدم جنَّته، وخرجتُ منه شريدًا طريدًا، حائرًا ملتاعًا، قد اصطلحت عليَّ الهموم والأحزان، فراق لا لقاء بعده، وفقر لا سادَّ لخلَّته، وغربة لا أجد عليها من أحد من الناس مواسيًا ولا معينًا.

وكانت معي صُبابةٌ من مالٍ قد بقيتْ في يدي من آثار تلك النعمة الذاهبة، فاتخذتُ هذه الحجرة العارية في هذه الطبقة العليا مسكنًا، فلم أستطع البقاء فيها ساعةً واحدة، فأزمعتُ الرحيل إلى حيث أجد في فضاء الله ومنفسح آفاقه علاج نفسي من همومها وأحزانها، فرحلت رحلة طويلة، قضيت فيها بضعة أشهر، لا أهبط بلدةً حتى تنازعني نفسي إلى أخرى، ولا تطلع عليَّ الشمس في مكانٍ حتى تغرب عني في غيره، حتى شعرت في آخر الأمر بسكونٍ في نفسي يشبه سكون الدمع المعلق في محجر العين، لا يفيض ولا يغيض.

فقنعت بذلك، وكان ميعاد الدراسة السنوية قد حان، فعدت، وقد استقر في نفسي أن أعيش في هذا العالم منفردًا كمُجتمِع، وغائبًا كحاضرٍ، وبعيدًا كقريب، وأن ألهو بشأن نفسي عن كل شأنٍ سواه، وأن أستعين على نسيان الماضي باجتناب مواطنه ومظاهره.

فلزمتُ غرفتي ومدرستي أُداول بينهما لا أفارقهما، ولم يبقَ أثرٌ لذلك العهد القديم في نفسي إلا نزوات تعاود قلبي من حين إلى حين، فأستعين عليها بقطراتٍ من الدمع أسكبها من جفني في خلوتي من حيث لا يعلم إلا الله ما بي، فأجد برد الراحة في صدري.

لبثت على ذلك برهةً من الزمان، حتى عدتُ بالأمس إلى تلك الفضلة التي كانت في يدي من المال، فإذا هي ناضبةٌ أو موشكة، وكنتُ مأخوذًا بأن أهيِّئ لنفسي عيشًا مستقلًّا، وأن أؤدي للمدرسة قسطًا من أقساطها، والمدرسة في هذا البلد حانوتٌ قاسٍ لا تُباع فيه السلعة نسيئةً، والعلم في هذه الأمة مرتزقٌ يَرتزق منه المرتزقون، لا منحةٌ يمنحها المحسنون، فأهمتني نفسي، وعلمت أني مشرف على الخطر، ولا أعرف سبيلًا إلى القوت بوجه ولا حيلة.

فعمدتُ إلى كتبي، فاستبقيت منها ما لا غنًى لي عنه، وحملت سائرها إلى سوق الوراقين، فعرضته هناك يومًا كاملًا، فلم أجد من يبلغ به في المساومة ربع ثمنه؛ فعدت به حزينًا وما على وجه الأرض أحدٌ أذل مني ولا أشقى!

فلما بلغتُ باب المنزل رأيت في فنائه امرأةً تُسائل أهل البيت عني، فتبيَّنتُها فإذا هي الخادم التي كانت تخدمني في منزل عمي.

فقلت: «فلانه؟»

قالت: «نعم.»

قلت: «ماذا تريدين؟»

قالت: «لي إليك كلمة فائذن لي.»

فصعدتُ معها إلى غرفتي، فلما خلونا قلت: «هاتِ.»

قالت: «مرَّت بي ثلاثة أيام وأنا أفتش عنك في كل مكانٍ، فلم أجد من يدلني عليك حتى وجدتك اليوم بعد اليأس منك.»

ثم انفجرت باكيةً بصوتٍ عالٍ؛ فراعني بكاؤها وخفت أن يكون قد حلَّ بالبيت الذي أحبه بأسٌ.

فقلت: «ما بكاؤك؟»

قالت: «أما تعلم شيئًا من أخبار بيت عمك؟»

قلت: «لا، فما أخباره؟»

فمدَّت يدها إلى ردائها وأخرجت من أضعافه كتابًا مغلقًا، فتناولتُه منها، ففضضتُ غلافه، فإذا هو بخط ابنة عمي، فقرأتُ فيه هذه الكلمة لا أزال أحفظها حتى الساعة:

«إنك فارقتني ولم تودعني، فاغتفرتُ لك ذلك، فأما اليوم وقد أصبحتُ على باب القبر، فلا أغتفر لك ألا تأتي إليَّ لتودعني الوداع الأخير.»

فألقيت الكتاب من يدي، وابتدرت الباب مسرعًا، فتعلَّقتِ الخادم بثوبي، وقالت: «أين تريد يا سيدي؟»

قلت: «إنها مريضة، ولا بد لي من المسير إليها.»

فصمتتْ لحظةً ثم قالت بصوتٍ خافتٍ مرتعش: «لا تفعل يا سيدي، فقد سبقك القضاء إليها!»

هنالك شعرتُ أن قلبي قد فارق موضعه إلى حيث لا أعلم له مكانًا، ثم دارت بي الأرض الفضاء دورةً سقطتُ على أثرها في مكاني لا أشعر بشيءٍ مما حولي، فلم أفق إلا بعد حين، ففتحت عيني فإذا الليل قد أظلني، وإذا الخادم لا تزال تبكي وتنتحب، فدنوت منها، وقلت: «أيتها المرأة، أحقٌّ ما تقولين؟»

قالت: «نعم.»

قلت: «قُصِّي عليَّ كل شيءٍ.»

فأنشأتْ تقول: «إن ابنة عمك يا سيدي لم تنتفع بنفسها بعد رحيلك، فقد سألتني في اليوم الذي رحلتَ فيه عن سبب رحيلك، فحدَّثتُها حديث الرسالة التي حملتُها إليك من زوجة عمك.

فلم تزد على أن قالت: «وماذا يكون مصير هذا البائس المسكين؟ إنهم لا يعلمون من أمره ولا من أمري شيئًا، ثم لم يَجْرِ ذكرك بعد ذلك على لسانها بخير ولا بشر، كأنما كانت تعالج في نفسها ألمًا ممضًّا.»

وما هي إلا أيام قلائل حتى سرى داء نفسها إلى جسمها، فاستحالت حالها، غاض ماء جمالها، وانطفأت تلك الابتسامات العذبة التي كانت لا تُفارق ثغرها، ثم سقطت على فراشها مريضةً لا تبلُّ يومًا حتى تنتكس أيامًا، فراع أمَّها أمرُها، وورد عليها ما قطعها عن ذكر العرس والعروس والخطبة والخطيب، وكانت لا تزال تهتف بذلك نهارها وليلها، فلم تدع طبيبًا ولا عائدًا إلا فزعت إليه أمرها، فما أغنى العائد ولا الطبيب! وأصبحت الفتاة تدنو من القبر رويدًا رويدًا.

فبينما أنا ساهرةٌ بجانب فراشها منذ ليالٍ إذ شعرت بها تتحرك في مضجعها، فدنوت منها، فأشارت إليَّ أن آخذ بيدها، ففعلتُ، فاستوت جالسةً وقالت: «في أي ساعة نحن من الليل؟»

قلت: «في الهزيع الأخير منه.»

قالت: «أأنت وحدك هنا؟»

قلت: «نعم، فقد هجع أهل البيت جميعًا.»

قالت: «ألا تعلمين أين مكان ابن عمي الآن؟»

فعجبتُ لكلمةٍ لم أسمعها منها قبل اليوم، وقلت: «بلى يا سيدتي أعلم مكانه.»

وما كنتُ أعلم شيئًا، ولكني أشفقتُ على هذا الخيط الرقيق الباقي في يدها من الأمل أن ينقطع فينقطع بانقطاعه آخر خيط من خيوط أجلها، فقالت: «ألا تستطيعين أن تحملي إليه رسالةً مني من حيث لا يعلم أحدٌ بشأني؟»

قلت: «لا أَحَبَّ إليَّ من ذلك يا سيدتي.»

فأشارت أن آتيها بمحبرتها، فجئتُها بها، فكتبتْ إليك هذا الكتاب الذي تراه، فلما أصبح الصباح خرجتُ أسائل الناس عنك في كل مكان، وأتصفَّح وجوه الغادين والرائحين علَّني أراك وأرى مَن يهديني إليك، فلم أظفر بطائلٍ حتى انحدرت الشمس إلى مغربها، فعدت إلى المنزل وقد مضى شطر من الليل، فما بلغتُهُ حتى سمعتُ الناعية، فعلمت أن السهم قد بلغ المقتل، وأن تلك الوردة الناضرة التي كانت تملأ الدنيا جمالًا وبهاءً قد سقطتْ آخر ورقةٍ من ورقاتها، فحزنتُ عليها حزن الثاكل على وحيدها، وما رُئي مثل يومها يومٌ كان أكثر باكيةً وباكيًا!

وكان أكبر ما أهمني من أمرها، أنَّ كل ما كانت ترجوه في الساعة الأخيرة من ساعات حياتها أن تراك، ففاتها ذلك وسقطت دون أمنيتها، فلم أزل كاتمةً أمر الرسالة في نفسي، ولم أزل أتطلب السبيل إليك حتى وجدتك.»

فشكرتُ لها صنيعها وآذنتها بالانصراف فانصرفتْ، فما انفردتُ بنفسي حتى شعرتُ أن سحابةً سوداء تهبط فوق عيني شيئًا فشيئًا حتى احتجب عن ناظري كل شيءٍ، ثم لا أعلم ماذا تم بعد ذلك حتى رأيتُك.»

وما وصل من حديثه إلى هذا الحد، حتى زفر زفرةً خِلْتُ أن كبده قد ارفَضَّت، وأن هذه أفلاذها، فدنوت منه، وقلت: «ما بك يا سيدي؟»

قال لي: «إني أطلب دمعةً واحدةً أتفرج بها مما أنا فيه فلا أجدها!»

ثم صمتَ ساعةً طويلة، فشعرتُ أنه يهمهم ببعض كلماتٍ، فأصغيت إليه، فإذا هو يقول: «اللهم إنك تعلم أني غريبٌ في هذه الدنيا، لا سند لي فيها ولا عضد، وأني فقير لا أملك من متاع الحياة ما أعود به على نفسي، وأني عاجزٌ مستضعفٌ لا أعرف السبيل

إلى بابٍ من أبواب الرزق بوجهٍ ولا حيلة، وأن الضربة التي أصابت قلبي قد سحقته سحقًا فلم يبقَ فيه حتى الذَّمَاء، وإني أستحي منك أن أمد يدي إلى هذه النفس التي أودعتها بيدك بين جنبي فأنتزعها من مكانها، فتولَّ أنت أمرها بيدك، واسترد وديعتك إليك، وانقلها إلى دار كرامتك، فنِعْمَ الدار دارك، ونِعْمَ الجوار جوارك.»

ثم أمسك رأسه بيده، كأنما يحاول أن يحبسه عن الفرار، وقال بصوت ضعيف خافت: «أشعر برأسي يحترق احتراقًا، وقلبي يذوب ذوبًا، لا أحسبني باقيًا على هذا، فهل تعدني أن تدفنني معها في قبرها وتدفن معي كتابها إن قضى الله فيَّ قضاءه؟»

قلت: «نعم، وأسأل الله لك السلامة!»

قال: «الآن أموت طيب النفس عن كل شيء.»

ثم انتفض انتفاضة فاضت نفسه فيها!

لقد هوَّن وجدي على هذا البائس المسكين، أني استطعت إمضاء وصيته كما أراد، فسعيت في دفنه مع ابنة عمه، ودفنت معه تلك الرسالة التي دعته فيها أن يوافيها، فعجز عن أن يلبي نداءها حيًّا فلبَّاها ميتًا.

وهكذا اجتمع تحت سقفٍ واحد ذانِكَ الصديقان الوفيان، اللذان ضاق بهما في حياتهما فضاءُ القصر، فوسعتهما بعد موتهما حفرة القبر.

الشهداء

مترجمة

لم يبقَ لها بعد موت زوجها وأبويها إلا ولدٌ صغير يؤنسها، وأخٌ شفيق يحنو عليها، وصبابةٌ من المال تترشَّف الرزق منها ترشفًا مصانعةً للدهر فيها.

أما الصبابة فقد نضبت، وأما الأخ فقد ضمه الدهر ضمةً ذهبت بماله وبجميع ما تملك يده، فهاجر هجرةً بعيدةً لا تعرف مصيره فيها، فأصبحت من بعده لا تملك مالًا ولا عضدًا.

لقد لقيت هذه المرأة المسكينة من الشقاء في طلب العيش ما لا يستطيع أن يحتمله بشرٌ، فخاطت الملابس حتى عَشِي بصرها، وغسلت الثياب حتى يبست أطرافها، ودخلت المصانع حتى كَلَّت، وخدمت في المنازل حتى ذَلَّت، ولكنها استطاعت أن تحيا ويحيا ولدها بجانبها.

ما كان لمثلها أن يحيا على مثل ذلك، ولكن الله كان أرحم بها من أن يسلبها السعادة ويسلبها العزاء عنها معًا، فقد كانت إذا دجا ليل الحوادث حولها، وأظلمت الحياة أمام عينيها، رأت في الأفق البعيد ثلاثة أشعةً تنبعث من سماء الرحمة الإلهية حتى تتلاقى في فؤادها فتملأه عزاءً وصبرًا: شعاع الأنس بولدها، وشعاع الرجاء في أخيها، وشعاع السرور بما وُفِّقت إليه من صيانة عرضها.

دارت الأيام دورتها، فاكتهلت الأم، وشبَّ الولد، وانتقل همُّ قلبها إلى قلبه، وكان لا بد له أن يعيش، وأن يحسن إلى تلك التي طالما أحسنت إليه، فمشى يتصفَّح وجوه الرزق

وجهًا وجهًا، ويَرِدُ مناهله منهلًا منهلًا، حتى وقف به حظه على مهنة الرسم، فأَنِسَ بها، وما زال يعطيها من نفسه وجدِّه حتى مهر فيها.

والمهارة لا تدل على صاحبها وحدها، بل هو الذي يدل عليها بحيلته ورفقه، وما كان الفتى يملك أداة ذلك، ولا يعرف السبيل إليه، فاستمر خاملًا مغمورًا، لا تدرُّ له مهنته إلا القطرة بعد القطرة في الفَيْنة بعد الفَيْنة، فلم يستطع أن يُسعد أمه، ولكنه استطاع أن يسد خلَّتها، فقنعتْ منه بذلك ولزمت منزلها، ووجدت برد الراحة في صدرها.

إلا أنها كانت إذا ذكرت ذلك الغائب النائي عنها، حنَّت إليه حنين النِّيب إلى فصالها، وأحزنها أنها لم ترَهُ منذ خمسة عشر عامًا، ولم تَرَ منه كتابًا منذ عشرة أعوام حتى اليوم، فلا تجد لها بدًّا كلما هاجها الوجد إليه إلا أن تلجأ إلى ذلك الملجأ الوحيد الذي يفزع إليه جميع البائسين والمحزونين في بأسائهم وضرائهم، خلوتها ودموعها، فتبكي ما شاء الله أن تفعل، ثم تخرج لاستقبال ولدها باشَّةً باسمة كأن لم تكن باكية قبل ذلك!

دخل عليها ولدها يومًا في خلوتها فرآها تبكي، ورأى في يدها صورةً فتبيَّنها، فإذا هي صورة خاله، فألمَّ بسريرة نفسها، وأمسك بين أهداب عينيه دمعةً مترقرقةً ما تكاد تتماسك، فمشى إليها حتى وضع يده على عاتقها، وقال: «رفِّهي عن نفسك يا أماه، فستعلمين خبر غائبك عما قليل.»

فتطلق وجهها وأضاء، وقالت: «وكيف السبيل إلى ذلك؟»

قال: «قد علمت أن معرضًا سيقام للرسم في واشنطون حاضرة أمريكا بعد بضعة أشهرٍ، وأنهم قدروا له جوائز مختلفة، صغرى وكبرى، وقد وعدني بعض أصدقائي أن يساعدني على الشخوص إليه، علَّني أستطيع أن أنال ما أقيم به وجهي وأنقذ به نفسي ونفسك من هذا الشقاء، وهنالك أفتش عن غائبك حتى أجده أو أجد منقطع أثره.»

فاستسرَّ بشرها الذي كان متلألئًا، وقالت: «لا تفعل يا بني، فما أنا بشقيَّةٍ ما رأيتك بجانبي، وما أنت بشقيٍّ ما قنعت بما قسم الله لك، ولئن فعلت لا تكونن امرأةٌ على وجه الأرض أعظم مني لوعةً ولا أشقى، ولئن بكيت لفراق أخي مرةً فسأبكي لفراقك ألف مرة، وإني كلما ذكرته وجدت في وجهك العزاء عنه، فمن لي بالعزاء عنكما إن فقدت وجهيكما معًا؟»

فما زال يروِّضها ويَسْمَحُها ويُمنِّيها في رحلته الأماني العذاب حتى أسلست وهدأت وأسلمت إلى الله أمرها.

وما هي إلا أيامٌ قلائل حتى ضرب الدهر بينهما بضرباته، فإذا الأم وحيدة في فرنسا لا مؤنس لها، وإذا الولد غريبٌ في أمريكا لا يعرف له سندًا، ولا عضدًا.

وصل الفتى إلى معرض الرسم فعرض رسمه هناك، وكان يمثل فيه موقف الوداع الذي جرى بينه وبين أمه على شاطئ البحر يوم رحيله، وكان موقفًا محزنًا فأحسن تمثيله، فأعجب القوم بجماله، وأثَّر في نفوسهم منظره، فقضوا له بالجائزة التي كان يمنِّي نفسه بها، فما حصلت في يده حتى خيِّل إليه أنه أسعد أهل الأرض طرًّا، وأن هذا اليوم هو أول يوم هبط فيه عالم الوجود، وأنه ما ذاق قبل الساعة مرارة العيش، ولا رأى صورة الشقاء!

وكذلك يعبث الدهر بالإنسان ما يعبث، ويُذيقه ما يذيقه من صنوف الشقاء وألوان الآلام، حتى إذا علم أنه قد أوحشه وأرابه وملأ قلبه غيظًا وحنقًا، أطلع له في تلك السماء المظلمة المدلهمة بارقةً واحدة من بوارق الأمل الكاذب فاسترده بها إلى حظيرته راضيًا مغتبطًا، كما تُقاد السائمة البلهاء بأعواد الكلأ إلى مصرعها، فما أسعد الدهر بالإنسان! وما أشقى الإنسان به!

أرسل الفتى إلى أمه بعض المال واستبقى لنفسه بعضًا، وكتب إليها أنه لن يبرح هذه الأرض حتى يفي لها بما عاهدها عليه، ومشى في طريقه يفتش عن خاله في أنحاء البلاد ويُسائل عنه كل من لقيه من القاطنين والطارئين، حتى حدَّثه بعضهم أن آخر عهدهم به رحلة رحلها عنهم من بضع سنوات إلى بعض الجزر الجنوبية في التفتيش عن معدن نحاس هناك، ثم لم يعد بعد ذلك.

فمشى في الطريق التي علم أنه سلكها حتى وصل إلى جزيرة موحشةٍ مقفرة، وكانت لا تزال تغشى سماء تلك البلاد بقيةٌ من ظلمات العصور الأولى، فمرَّ بقبيلةٍ من قبائل الزنج نازلةً هناك وراء بعض الجبال المنقطعة، فما رأوه حتى هاجت في صدورهم أحقاد تلك العداوة اللونية التي لا يزال يضمرها هؤلاء القوم لكل شيءٍ أبيض، حتى للشمس المشرقة، والكواكب الزاهرة، فداروا به دورةً سقط من بعدها أسيرًا في أيديهم، فاحتملوه حتى وصلوا به إلى ديارهم، فاحتبسوه هناك في نفقٍ تحت الأرض كانوا يسمونه «سجن الانتقام».

هنالك علم أن تلك البارقة التي لاحت له في سماء السعادة من الأمل يوم المعرض، إنما هي خدعةٌ من خدع الدهر، وأكذوبةٌ من أكاذيبه، وأن ما كان يقدره لنفسه من سعادةٍ وهناء في مستقبل أيامه قد ذهب بذهاب أمس الدابر، وأصبح صحيفةً باليةً في كتاب الدهر الغابر.

ولقد كان في استطاعته أن يخلد للنازلة التي نزلت به ويستمسك لها لو أنه استقل بحملها، ولكن الذي آدَهُ وأثقله، أن هناك إنسانًا آخر كريمًا عليه يقاسمه إياها، فقد أصبح يحمل مصيبته ومصيبة أمه فيه على عاتقٍ واحد.

نزلوا به إلى المحبس وقادوه إلى سلسلةٍ غليظة الحلقات فسلكوه فيها، ثم أغلقوا الباب من دونه وتركوه وشأنه، فما انفرد بنفسه حتى فتح عينيه فلم يَرَ أمامه شيئًا، فلم يعلم: هل كُفَّ بصره أم اشتدت الظلمة أمام عينيه فحجبت عن ناظره كل شيءٍ حتى نفسها؟ فلم يزل في حيرته حتى انقضى الليل، فانحدر إليه من ثقبٍ صغير في حائط المحبس خيطٌ أبيض دقيقٌ من شعاع الشمس حتى استقر بين يديه، فأَنِسَ به أُنس الغريب بالغريب، وشكر للشمس رسولها الذي أرسلته إليه ليؤنسه في وحدته، واستمر بصره عالقًا به لا يفارقه أينما سار وحيثما انتقل، حتى رآه يقبض شيئًا فشيئًا، ويتراجع قليلًا قليلًا، ثم علا إلى ثقبه الذي انحدر منه، ثم طار إلى سمائه التي هبط منها، فحزن لفراقه حزن العشير لفراق عشيره، ودار بعينيه حول نفسه، فإذا قطعٌ سوداء مظلمةٌ تتدجَّى وتتكاثف من حوله، ويَمْلَسُ بعضها في أحشاء بعض.

وإذا هو نفسه قطعةٌ من تلك القطع هائمة بينها هيمان الروح الحائر في ظلمات القبور، فما كاد يعرف مكانه منها، فمشى في ذلك المعترك المائج يفتش عن نفسه ويتلمسها بيده تلمسًا، حتى سمع صلصلة السلسلة الملتفة على قدميه، فوجدها وكان قد أجهده المسير، فتساقط على نفسه باكيًا منتحبًا.

وكذلك انقطع هذا المسكين عن العالم كله خيره وشره، ولم يبقَ بينه وبينه من صلةٍ إلا ذلك الشعاع الأبيض الذي يزوره كل صباح، وذلك السجان الأسود الذي يطرقه كل مساء.

وما مرت به على حاله تلك سنة واحدة حتى نسي نفسه، ونسي أمه، ونسي العالم الذي كان يعيش فيه، والعالم الذي انتقل إليه، ونسي الليل والنهار، والظلمة والنور، والسعادة والشقاء، وأصبح في منزلةٍ بين منزلتي الحياة والموت، فلا يفرح ولا يتألم، ولا يذكر الماضي، ولا يرجو المستقبل، ولا يعلم هل هو حجرٌ بين تلك الأحجار، أو قطعةٌ بين قطع الظلام، أو جسدٌ يتحرك، أو خيالٌ يسري، أو وهمٌ من الأوهام، أو عدم من الأعدام؟

مرت على تلك الأم المسكينة بضعة أعوام لا ترى ولدها ولا تجد من يدلها عليه، فأصبح من يراها في طريقها، يرى عجوزًا حدباء والهةً متسلِّبة مذهوبًا بها قد توكأت على عصًا ما تزال تضطرب في يدها، وأسبلت فوق جسمها الناحل المحقوقف أهدامًا

خُلْقانًا يحسبها الناظر إليها — لكثرة ما نالت يد البِلَى منها — أهدابًا متلاصقةً أو مزقًا متطايرة، تقف صدر النهار بأبواب المعابد والكنائس، تسأل الله أن يرحمها، والناس أن يطعموها.

حتى إذا زالت الشمس عن كبد السماء أخذت سمتها إلى شاطئ البحر، وجلست فوق بعض صخوره تناجي أمواجه ورماله، وترقب أفقه البعيد كما يرقب المنجِّم كوكبه في أفق السماء، فإذا سرت إليها نسمةٌ وجدت ريح ولدها فيها، وإذا أقبلت عليها موجةٌ ظنت أنها رسولٌ منه إليها، وإذا تراءت لها سفينة ماخرةٌ على سطح الماء حسبتها السفينة التي تحمله، فلا يزال بصرها عالقًا بها لا يفارقها حتى ترسو على الشاطئ، فتقف في طريق ركبانها تتصفح الوجوه، وتتفرس الشمائل، وتهتف باسم ولدها صارخةً مُعْوِلَةً، وتقول: «عباد الله، من يدلني على ولدي، أو ينشده لي في معالم الأرض ومجاهلها، فقد أضللته منذ عهد بعيد، فحار بي الدهر من بعده، فلا أنا سالية عنه ولا واجدة إليه سبيلًا، فاحتسبوها يدًا عند الله وحدثوني عنه هل عاد معكم، أو تخلف عنكم ليأتي على إثركم، أو انقطع الدهر به فلا أمل فيه بعد اليوم؟» فلا يلتفت إليها أحدٌ، ولا يفهم أحد ما تقول، وربما لمحها بعض الناس فظنها امرأة ملتاثةً فرثى لها، أو سائلة فتصدق عليها!

ولا يزال هذا شأنها في موقفها هذا حتى ترى الأمهات والأخوات والفتيات، قد عُدنَ بأولادهن وإخوانهن وآبائهن إلى منازلهن، ولم يبقَ على شاطئ البحر مِن غادٍ ولا رائح سواها، فتتناول عصاها وتعود أدراجها إلى بيتها، فتأخذ مجلسها من حافة قبرٍ كانت قد احتفرته بيدها في أرض قاعتها وتوهمته مدفنًا لولدها، فتظل تبكي وتقول: «في أي بطنٍ من بطون الأرض مضجعك يا بني، وتحت أي نجم من نجوم السماء مصرعك، وفي أيِّ قاع من قيعان البحر مثواك، وفي أي جوف من أجواف الوحوش الضاربة مأواك؟

لو يعلم الطير الذي مزق جثتك، أو الوحش الذي ولغ دمك، أو القبر الذي ضمك إلى أحشائه، أو البحر الذي طواك في جوفه، أن وراءك أمًّا مسكينة تبكي عليك من بعدك لرحموك من أجلي؟!

عد إليَّ يا بني فقيرًا أو مقعدًا أو كفيفًا، فحسبي منك أن أراك بجانبي في الساعة التي أُفارق فيها هذه الحياة، لأُقبِّلك قبلة الوداع، وأعهد إليك بزيارة مضجعي مطلع كل شمس ومغربها لتخفَّ بزورتك عني ضَمَّة القبر، وتستنير بوجهك الوضاء ظلماته الحالكة!

ما أسعد الأمهات اللواتي يسبقن أولادهن إلى القبور! وما أشقى الأمهات اللواتي يسبقهن أولادهن إليها! وأشقى منهن تلك الأم المسكينة التي تدب إلى الموت دبيبًا وهي لا تعلم: هل تركت ولدها وراءها، أو أنها ستجده أمامها؟»

وهكذا كان شأنها صباحها ومساءها، فلم تزل تبكي ولدها بكاء يعقوب ولده، حتى ذهب بصرها ذهاب بصره، ولكنها لم تستطع عن يُوسُفِها صبرًا.

دخل السجان على الفتى عشية ليلةٍ في محبسه، فاقترب منه، ومد يده إلى سلسلته المثبتة في الجدار فانتزعها من مكانها، فلم يقل شيئًا، ولم يسائل نفسه هل هي ساعة نجاته أو ساعة حِمامه، ثم قاده إلى خارج المحبس حتى وصل به إلى صخرةٍ جاثمة على مقربة من مجتمع القبيلة، فشد سلسلته إليها وتركه مكانه ومضى، ففتح عينيه فرأى مكانًا غير مكانه، ومنظرًا غير منظره، وسماء وأرضًا غير سمائه وأرضه، فبدأ شعوره يعود إليه شيئًا فشيئًا، حتى استفاق فتذكَّر ما كان فيه ورأى ما صار إليه.

هنالك تذكَّر السعادة والشقاء، والغربة والوطن، والسجن وظلمته، والقيد ووطأته، ثم طار بخياله إلى ما وراء البحار، فذكر أمه وشقاءها من بعده، وحنينها ويأسها من لقائه، فذرفت عيناه دمعةً كانت هي أول دمعة أرسلها من جفنيه من تاريخ شقائه، وما زال يرسل العبرة إثر العبرة، لا يهدأ ولا يستفيق، حتى مضى شطرٌ من الليل، وهدأ الناس جميعًا في مضاجعهم، فأسلم رأسه إلى ركبتيه وذهب بخياله إلى حيث شاء أن يذهب.

فإنه لكذلك وقد رَنَّقَتْ في عينيه سِنَةٌ من النوم إذ شعر بيدٍ تلمس كتفيه، فرفع رأسه، فإذا شبحٌ أبيض قائمٌ فوق رأسه، فخُيِّل إليه أن مَلكًا نورانيًّا نزل إليه من علياء السماء لينقذه من شقائه، فتبيَّنه فإذا فتاة جميلة بيضاء، ما التفَّتِ الأُزُر على مثلها حسنًا وبهاءً، تتمشى في بياضها سُمرة رقيقة كسمرة السحاب الرهو الذي يخالط وجه الشمس في صحوة النهار، فسألها: «من أنت؟»

قالت: «أنا فتاة من فتيات هذا الحي، وقد ألمت بشيءٍ من أمرك، فعلمت أنك شقيٌّ فرحمتُك مما أنت فيه، فجئتك أطلق وثاقك لتذهب حيث تشاء، فلا مثوبة يقدمها المرء بين يدي ربه يوم جزائه أفضل من مواساة البائس وتفريج كربة المكروب!»

فعَجِبَ لزنجيةٍ بيضاء ووثنية تعبد الله، وبربرية تحمل بين جنبيها قلبًا يعطف على البؤساء والمنكوبين، وقال في نفسه: «ما لهذا الفتاة بُدٌّ من شأن.» وورد عليه من أمرها ما ذهب بلبِّه، وملك عليه نفسه وهواه، وأنساه كل شأنٍ في الحياة إلا شأنها، فلبث صامتًا واجمًا لا ينطق.

وقال لها: «اذهبي لشأنك يا سيدتي فإنني لا أريد النجاة!»

فعلمتْ أنها ثورةٌ من ثورات اليأس، فدنتْ منه ووضعت يدها على عاتقه، وقالت: «لا تجعل لليأس إلى قلبك أيها الفتى سبيلًا، وانجُ بحياتك من يد الموت، فليس بينك وبينه إن بقيت هنا إلا أن ينحدر عن وجهك قناع هذا الليل، فإذا أنت فِلَذٌ طائرةٌ مع شفرات السيوف، فلا تفجع نفسك في نفسك، ولا تفجع هذه المسكينة الواقفة بين يديك، فإن شديدًا عليَّ جدًّا أن أراك بعد قليل ذبيحةً في يد الذابح، أو مضغةً في فم الآكل!»

قال: «إنك لا تستطيعين نجاتي.»

قالت: «لا أفهم ما تقول، فإنني ما جئتك إلا وأنا عالمة ماذا أصنع.»

قال: «قد كنت قبل اليوم موثقًا بوثاق واحدٍ فأصبحت موثقًا بوثاقين، فإن استطعتِ أن تحلي وثاق قدمي فإنك لا تستطيعين أن تحلي وثاق قلبي.»

فألَّت بسريرة نفسه فرفعت وجهها إلى السماء ولبثت شاخصةً إليها ساعة، فرفع رأسه إليها ولبث شاخصًا إلى وجهها نَظَرَ المصوِّر الماهر إلى تمثاله البديع، حتى شعر بدمعة حارة قد سقطت من جفنها على وجهه، فجرت في مجرى الدموع من خده، فانحدرت من جفنه دمعةٌ مثلها فالتقت بدمعتها فامتزجتا معًا.

فمد يده إلى ردائها فاجتذبها إليه، وقال: «قد طال وقوفك يا سيدتي فاجلسي بجانبي نتحدث قليلًا.»

فجلست على مقربة منه، فقال لها: «إن امتزاج دمعي بدمعك في هذه الساعة قد دلني على أننا لن نفترق بعد اليوم أحياءً أو أمواتًا، فإن كنتِ تريدين لي النجاة فإنني لا أنجو إلا بك.»

قالت: «ليتني أستطيع ذلك يا سيدي.»

قال: «وما يمنعك منه؟»

فنظرت إليه نظرة دامعة، وقالت: «أخاف أن أحبك!»

قال: «ولِمَ تخافين؟»

قالت: «لا أعلم.»

قال: «أنا لا أسألك عما تكتمين في صدرك من الأسرار، ولكني أسألك أن تتركيني وشأني في يد القدر يفعل بي ما يشاء، فقد كنتُ أخاف الموت قبل أن أراك، أما اليوم فحسبي عزاءً عما ألاقيه من غصصه وآلامه نظرة رحمةٍ تلقينها عليَّ في مصرعي، ودمعة حزن تسكبينها من بعدي على تربتي.»

فما استقبلته إلا بدموعها تنحدر على خديها كالعقد وهى سِلْكُه فانتثر، ثم مدت يدها إلى قيده فعالجته حتى انصدع، وقالت: «إني ذاهبة معك وليقضِ الله فِيَّ وفيك قضاءه.»

مشيا يطويان القفار، ويعبران الأنهار، ويضحيان مرة ويَخْضَران أخرى، ويَرِدَان آجن المياه وصفوها، ويقتاتان يابس الثمار ورطبها، فإذا لاح لهما ظل شجرة أو شاطئ غدير أو سفح جبلٍ أويا إليه فاستراحا بجانبه قليلًا ثم عادا إلى شأنهما.

وكانت لا تزال تغشى وجه الفتاة مذ فارقت موطنها سحابةٌ سوداء من الحزن ما تكاد تنقشع عنه، وكانا إذا نزلا منزلًا وأخذا مضجعهما من تربه وأحجاره نهضت من مرقدها بعد هدأةٍ من الليل وانتحت ناحية من حيث تظن أنه لا يشعر بمكانها، ومدت يدها إلى صدرها فتناولت صليبًا صغيرًا فقبَّلته.

ثم أنشأت تهمهم بكلامٍ خفيٍّ، كأنها تناجي به شخصًا غائبًا عنها فتستغفره من ذنب جنته إليه مرة، وتطلب معونته على أمرٍ لا تعرف مصيره، ولا تعلم وجه الصواب فيه أخرى، حتى ينبثق نور الفجر فتعود إلى مرقدها.

وكان كلما سألها عن شأنها، التوت عليه ودافعته عنها حتى تَلَوَّم أن يُعاودها، فتركها وشأنها، وقد أصبح يحمل في صدره من الهم فوق ما تحمل من هم نفسها، حتى أشرفا بعد مسير ثلاثين يومًا على سواء العمران، فاستبشرا وعلما أنهما قد أصبحا في الساعة الأخيرة من ساعات الشقاء.

وكانا قد وصلا إلى نهر صغير هناك، فجلسا بجانبه تحت شجرة مورقةٍ يتحدثان، وهي أول مرة جلسا فيها للحديث، فقال لها: «ما حفظ الله حياتنا في هذه السفرة الطويلة في هذه القفرة الجرداء الموحشة إلا وقد كتب لنا في لوح مقاديره سعادةً لا أحسب أنه قد أعد خيرًا منها لعباده المتقين في جنات النعيم.»

قالت: «ومتى كانت هذه الحياة موطنًا للسعادة أو مستقرًّا لها؟ ومتى سعد أبناؤها بها فنسعد مثلهم كما سعدوا؟ وإن كان لا بد من سعادة في هذه الحياة فسعادتها أن يعيش المرء فيها معتقدًا أن لا سعادة له فيها، ليستطيع أن يقضي أيامه المقدرة له على ظهرها هادئ القلب، ساكن النفس، لا يكدر عليه عيشه أملٌ كاذب، ولا رجاء خائب!»

قال: «إن السعادة حاضرة بين أيدينا، وليس بيننا وبينها إن أردناها إلا أن نطوي هذه المرحلة الباقية من هذا القفر، فنلجأ إلى أول بيت نلقاه في طريقنا من بيوت الله، فنجثو أمام مذبحه ساعةً نخرج من بعدها زوجين سعيدين لا يحول بيننا حائل، ولا يكدر صفونا مكدر.»

فأطرقت هنيهةً، ثم رفعت رأسها فإذا دمعة صافية تنحدر على خدها، فقال: «ما بكاؤك يا سيدتي؟»

فقالت: «أتذكر ليلة النجاة إذ دعوتني إلى الفرار معك، فقلت لك إني أخاف إن فررت معك أن أحبك؟»

قال: «نعم.»

قالت: «وا أسفاه لقد وقع اليوم ما كنت منه أخاف.»

ثم صرخت صرخةً عالية وقالت: «ماذا يا أماه؟»

وسقطت مكبةً على وجهها، فدنا منها وأمسك بيدها فإذا رعدةٌ شديدة تتمشى في أعضائها، فعلم أنها البُرَدَاء، وعمد إلى بعض الأشجار فاقتطع منها بضعة أعواد، ومشى يفتش عن الناس في كوخ كان يتراءى له على البعد، حتى بلغه، فوجد على بابه كاهنًا شيخًا جليل المنظر، فدنا منه وحياه تحيةً حيَّاه بأحسن منها، وقال له: «ما شأنك يا بني؟»

قال: «إن بجانب ذلك النهر فتاةً مسكينة تركتها ورائي تشكو البرد، فهل أجد عندك جذوة نار أعود بها إليها لتصطلي بها؟»

فمكَّنه من طلبته، وقال له: «كتب الله لك ولعليلتك السلامة يا بني، فاذهب فإني على إثرك.»

فعدا الفتى عدوًا شديدًا حتى بلغ النهر، فأدهشه أن رأى الفتاة هادئةً ساكنةً، طيبة النفس، لا تشكو بردًا ولا ألمًا، فأقبل عليها متهللًا.

وقال لها: «لعل ما كان يخالط نفسك من الألم لذكر أهلك ووطنك قد ذهب بذهاب الأيام.»

قالت: «ما كان يخالط نفسي من ذلك شيءٌ، فاجلس أحدِّثك حديثي فقد آن أن أفضي به إليك.»

فجلس بجانبها فأنشأت تحدثه، وتقول: «أنا فتاة غريبةٌ مثلك عن هذه الديار، لا أعرف من ساكنيها غير نفسي، ولا من أرضها غير قبرٍ قد زال اليوم رسمه وبَلِيَ مع الأيام دفينه، فقد ولدتني أمي على فراش رجلٍ أبيض وفد من دياركم منذ عشرين عامًا، فالتقى بها عند مروره بحيها فأحبها وأحبته، ثم فرت معه إلى ما وراء هذه الصحراء، فدانت بدينه، ثم تزوجها فولداني، وعشنا جميعًا من الدهر عيش السعداء الآمنين.

وكان رجال قبيلة أمي لا يزالون يتطلبون السبيل إلينا حتى سقطوا علينا سقوط القضاء في جنح ليلةٍ من ليالي الظلام، فاقتادونا جميعًا إلى أرضهم، وكنت إذ ذاك لم

أسلخ العاشرة من عمري، فقتلوا أبي أمامي وأمام أمي قتلةً لا يزال منظرها حاضرًا بين يدي حتى الساعة لا يفارقني، فحزنت أمي عليه حزنًا شديدًا ما زال يدنو بها من القبر شيئًا فشيئًا حتى جاءت ساعتها، فحضر موتها رسولٌ من رسل المسيح كان لا يزال يختلف إليها من حين إلى حين، فدعتني إليها أمامه، وقالت لي: «يا بنية، إن أمي قد ولدتني للشقاء في هذا العالم، وأحسب أني قد ولدتُك له كذلك، فحسبنا ذلك، ولا تكوني سببًا في شقاء أحدٍ من بعدك، وانذري نفسك للعذراء نذرًا لا يحله إلا الموت.» فأذعنت لأمرها وأشهدت الكاهن على نذري، فتلألأ وجهها بشرًا وسرورًا، ثم نظرت نظرةً في السماء وقالت: «هأنذا على إثرك يا رافائيل، ثم فاضت روحها».»

فاضطرب الفتى عند سماع هذا الاسم وقال لها: «هل تعرفين وطن أبيك وأسرته؟»

قالت: «نعم.»

وسمتهما له، فاستطير فرحًا وسرورًا، وقال: «أحمدك اللهم فقد وجدت ضالتي!»

فعجبت لأمره، وقالت: «وأي ضالةٍ تريد؟»

قال: «أتذكرين ليلة اللقاء إذ امتزجت دمعتانا معًا فقلت لك إنها صلةٌ بيني وبينك لا يقطعها إلا الموت؟»

قالت: «نعم.»

قال: «قد كنت أَمُتُّ إليك قبل اليوم بحرمة الحب وحدها، فأصبحت أمت إليك بحرمة الحب والقربى، فأنت اليوم حبيبتي وابنة خالي معًا!»

فقالت بصوت خافتٍ: «أحمد الله، فقد وجدت لي في هذه الساعة العصيبة أخًا.»

وأخذ جسمها يضطرب اضطرابًا شديدًا، ووجهها يربد شيئًا فشيئًا، فذعر الفتى وارتاع، وحنا عليها وقال: «ماذا أرى؟»

قالت: «لا تُرَعْ، فأصغ إليَّ؛ فإن لحديثي بقيةً لم تسمعها، إنني منذ حفظت وصية أمي ووهبت العذراء نفسي، كان لا بد لي أن أتخذ لي ملجأ أفزع إليه في اليوم الذي أخاف أن يغلبني فيه هواي على ديني، فكنت لا أزال أحمل تلك القارورة معي حتى جاء اليوم الذي خفته، فلجأت إليها، فنجوت، وأستودعك الله.»

فنظر الفتى حيث أشارت، فرأى قارورة مطروحة وراءها فتناولها، فإذا هي فارغة إلا بقية صفراء في قرارتها ففهم كل شيء.

هنالك شعر كأن شعبةً من شعاب قلبه قد هوت بين أضلاعه، وكأن طائرًا قد نفض جناحيه، ثم طار عن رأسه إلى جو السماء، فصعق في مكانه صعقةً لم يشعر بعدها

بشيءٍ مما حوله، فلم يستفق إلا بعد حين، ففتح عينيه فإذا الفتاة بجانبه جثة باردة، وإذا الكاهن صاحب الكوخ واقفٌ أمامه يحمل على كفِّه طعامًا كان قد جاء به إليهما، ويقلب نظره حائرًا لا يفهم مما يرى شيئًا، فوثب الفتى إليه حتى صار أمامه وجهًا لوجه ونظر إليه نظرةً شزراء كتلك النظرة التي يلقيها الموتور على وجه واتره، وكأن قد خُولط في عقله فأخذ يهذي، ويقول: «أتدري أيها الرجل لِمَ ماتت هذه الفتاة؟ لأنها وهبت نفسها للعذراء، ثم عرض لها الحب في طريقها فوقفت حائرة بين قلبها ودينها، فلم تجد لها سبيلًا إلى الخلاص إلا سبيل الانتحار فانتحرت. تلك جرائمكم يا رجال الأديان التي تقترفونها على وجه الأرض، ما كفاكم أن جعلتم أمر الزواج في أيديكم تحلون منه ما تحلون، وتربطون ما تربطون، حتى قضيتم بتحريمه قضاءً مبرمًا لا يقبل أخذًا ولا ردًّا!

إن الذي خلقنا وبثَّ أرواحنا في أجسامنا هو الذي خلق لنا هذه القلوب وخلق لنا فيها الحب، فهو يأمرنا أن نحب، وأن نعيش في هذا العالم سعداء هانئين، فما شأنكم والدخول بين المرء وربه، والمرء وقلبه؟

إن الله بعيد في علياء سمائه عن أن تتناوله أنظارنا، وتتصل به حواسنا، ولا سبيل لنا أن نراه إلا في جمال مصنوعاته وبدائع آياته، فلا بد لنا من أن نراها ونحبها لنستطيع أن نراه ونحبه.

إن كنتم تريدون أن نعيش على وجه الأرض بلا حبٍّ، فانتزعوا من بين جنوبنا هذه القلوب الخفافة ثم اطلبوا منا بعد ذلك ما تشاءون؛ فإننا لا نستطيع أن نعيش بلا حبٍّ ما دامت لنا أفئدة خافقة.

أتظنون أيها القوم أننا ما خُلقنا في هذه الدنيا إلا لننتقل فيها من ظلمة الرحم إلى ظلمة الدير، ومن ظلمة الدير إلى ظلمة القبر؟ بئست الحياة حياتنا إذن، وبئس الخلق خلقنا، إننا لا نملك في هذه الدنيا سعادةً نحيا بها غير سعادة الحب، ولا نعرف لنا ملجأ نلجأ إليه من هموم العيش وأرزائه سواها، ففتشوا لنا عن سعادة غيرها قبل أن تطلبوا منا أن نتنازل لكم عنها.

هذه الطيور التي تغرد في أفنائها إنما تغرد بنغمات الحب، وهذا النسيم الذي يتردد في أجوائه إنما يحمل في أعطافه رسائل الحب، وهذه الكواكب في سمائها، والشموس في أفلاكها، والأزهار في رياضها، والأعشاب في مروجها، والسوائم في مراتعها، والسوارب في أحجارها … إنما تعيش جميعًا بنعمة الحب، فمتى كان الحيوان الأعجم والجماد الصامت — أيها القساة المستبدون — أرفع شأنًا من الإنسان الناطق وأحق منه بنعمة الحب والحياة؟!

فهنيئًا لها جميعها أنها لا تعقل عنكم ما تقولون، ولا تسمع منكم ما تنطقون، فقد نجت بذلك من شرٍّ عظيم، وشقاءٍ مقيم.

إننا لا نعرفكم أيها القوم ولا ندين بكم، ولا نعترف لكم بسلطان على أجسامنا أو أرواحنا، ولا نريد أن نرى وجوهكم أو نسمع أصواتكم، فتواروا عنا واذهبوا وحدكم إلى معابدكم أو مغاوركم، فإنا لا نستطيع أن نتبعكم إليها، ولا أن نعيش معكم فيها.

إن وراءنا نساءً ضعاف القلوب ورجالًا ضعاف العقول، ونحن نخافكم عليهم أن يمتد شركم إليهم، فلا بد لنا أن نقف في وجوهكم ونعترض سبيلكم لنذودكم عنهم حتى لا تصلوا إليهم فتفسدوا عليهم البقية الباقية من قلوبهم وعقولهم.

إنا لا نعبد إلا الله وحده، ولا نشرك به غيره، وفي استطاعتنا أن نعرف الطريق إليه وحدنا بدون دليل يدلنا عليه، فلا حاجة لنا بكم ولا بوساطتكم.

كتاب الكون يغنينا عن كتابكم، وآيات الله تغنينا عن آياتكم، وأناشيد الطبيعة ونغماتها تغنينا عن أناشيدكم ونغماتكم، هذا الجمال المترقرق في سماء الكون وأرضه، وناطقه وصامته، ومتحركه وساكنه، إنما هو مرآةٌ نقيةٌ صافية ننظر فيها فنرى وجه الله الكريم مشرقًا متلألئًا، فنخر بين يديه ساجدين، ثم نصغي إليه لنستمع وحيه، فنسمعه يقول لنا: أيها الناس، إنما خُلق الجمال متعةً لكم فتمتعوا به، وإنما خُلقتم حياةً للجَمال فأحيوه.

ذلك أمر الله الذي نسمعه ولا نسمع أمرًا سواه.»

وما إن وصل في حديثه إلى هذا الحد حتى ثقل لسانه، ووهنت عزيمته، وارتعدت مفاصله، فسقط في مكانه يزفر زفيرًا شديدًا، ويئن أنينًا محزنًا، فاقترب منه الشيخ ووضع يده على رأسه، وقال له: «ارفق بنفسك يا بني؛ فما أنت بأول ثاكلٍ على وجه الأرض، ولا فقيدك بأول راحلٍ عنها، وإن في رحمة الله ورضوانه عزاءً للصابرين وجزاءً للمحسنين.»

فأهوى الفتى على يده وأخذ يقبِّلها، ويقول: «اغفر لي ذنبي يا أبتِ، فقد كنت من الظالمين.»

قال: «غفر الله لك يا بني؛ فما دون رحمة الله بابٌ موصَّدٌ ولا رتاجٌ معترِضٌ.»

قال له: «يا أبتِ، إن هذه الفتاة غريبةٌ عن هذه الأرض، وليس لها فيها أحدٌ سواي، وقد ماتت من أجلي وفي سبيلي، فهل تأذن لي أن أدنو منها لأقبِّلها قبلة الوداع في آخر ساعة من ساعاتها على وجه الأرض؟»

قال: «افعل يا بني.»

فزحف على ركبتيه حتى بلغ مكانها فضمها إليه ضمةً شديدة وأهوى بفمه على فمها، فقبلها لأول مرة في حياته قبلةً فاضت روحه فيها.

في الساعة التي دُفن فيها هذان الشهيدان تحت تلك الشجرة المورقة على شاطئ ذلك النهر الجاري، مرت بكوخ العجوز امرأةٌ من جاراتها كانت تعتادها الزيارة من حين إلى حين، فنظرت إلى مكانها الذي اعتادت أن تتخذه من حافة ذلك القبر المفتوح فرأته خاليًا، فأشرفت على الحفرة فوجدتها متردية فيها، معفرةً بترابها، لا حراك بها، فملأت بالتراب الذي كان مجتمعًا حول الحفرة تلك الأشبار الخمسة التي هي مسافة ما بين الحياة والموت، ثم أسبلت فوق تربتها دمعةً كانت هي كل نصيبها من الدنيا!

الحجاب

موضوعة

ذهب فلانٌ إلى أوروبا وما ننكر من أمره شيئًا، فلبث فيها بضع سنين، ثم عاد وما بقي مما كنا نعرفه منه شيءٌ.

ذهب بوجهٍ كوجه العذراء ليلة عرسها، وعاد بوجهٍ كوجه الصخرة الملساء تحت الليلة الماطرة، وذهب بقلبٍ نقيٍّ طاهرٍ يأنس بالعفو ويستريح إلى العذر، وعاد بقلبٍ ملفَّفٍ مدخولٍ لا يفارقه السخط على الأرض وساكنها، والنقمة على السماء وخالقها، وذهب بنفسٍ غضةٍ خاشعة ترى كل نفس فوقها، وعاد بنفس ذهَّابةٍ نزاعة لا ترى شيئًا فوقها، ولا تلقي نظرة واحدة على ما تحتها، وذهب برأس مملوءٍ حكمًا ورأيًا، وعاد برأسٍ كرأس التمثال المثقب لا يملؤه إلا الهواء المتردد، وذهب وما على وجه الأرض أحب إليه من دينه ووطنه، وعاد وما على وجهها أصغر في عينيه منهما.

وكنت أرى أن هذه الصورة الغريبة التي يتراءى فيها هؤلاء الضعفاء من الفتيان العائدين من تلك الديار إلى أوطانهم إنما هي أصباغٌ مفرغةٌ على أجسامهم إفراغًا، لا تلبث أن تطلع عليها شمس المشرق حتى تتصل وتتطاير ذراتها في أجواء السماء، وأن مكان المدنية الغربية من نفوسهم مكان الوجه من المرآة، إذا انحرف عنها زال خياله منها.

فلم أشأ أن أفارق ذلك الصديق ولبستُه على علَّاته، وفاءً بعهده السابق ورجاءً لغده المنتظر، محتملًا في سبيل ذلك من حمقه ووسواسه وفساد تصوراته وغرابة أطواره ما

لا طاقة لمثلي باحتمال مثله، حتى جاءني ذات ليلة بداهية الدواهي ومصيبة المصائب، فكانت آخر عهدي به.

دخلت عليه فرأيته واجمًا مكتئبًا، فحييته فأومأ إليَّ بالتحية إيماءً، فسألته ما باله؟ فقال: «ما زلت منذ الليلة من هذه المرأة في عناء لا أعرف السبيل إلى الخلاص منه، ولا أدري مصير أمري فيه.»

قلت: «وأي امرأة تريد؟»

قال: «تلك التي يسميها الناس زوجتي، وأسميها الصخرة العاتية في طريق مطالبي وآمالي.»

قلت: «إنك كثير الآمال يا سيدي، فعن أي آمالك تتحدث؟»

قال: «ليس لي في الحياة إلا أملٌ واحد، هو أن أغمض عينيَّ ثم أفتحهما فلا أرى برقعًا على وجه امرأةٍ في هذا البلد!»

قلت: «ذلك ما لا تملكه ولا رأي لك فيه.»

قال: «إن كثيرًا من الناس يرون في الحجاب رأيي، ويتمنون في أمره ما أتمنى، ولا يحول بينهم وبين نزعه عن وجوه نسائهم وإبرازهن إلى الرجال يجالسنهم كما يجلس بعضهن إلى بعض إلا العجز والضعف والهيبة التي لا تزال تلم بنفس الشرقي كلما حاول الإقدام على أمرٍ جديد.

فرأيت أن أكون أول هادمٍ لهذا البناء العادي القديم الذي وقف سدًّا دون سعادة الأمة وارتقائها دهرًا طويلًا، وأن يتم على يدي ما لم يتم على يد أحدٍ غيري من دعاة الحرية وأشياعها.

فعرضت الأمر على زوجتي فأكبرتْهُ وأعظمتْهُ، وخيِّل إليها أنني جئتها بإحدى النكبات العظام والرزايا الجسام، وزعمتْ أنها إن برزتْ إلى الرجال؛ فإنها لا تستطيع أن تبرز إلى النساء بعد ذلك حياءً منهن وخجلًا.

ولا خجل هناك ولا حياء، ولكنه الموت والجمود والذل الذي ضربه الله على هؤلاء النساء في هذا البلد أن يعشنَ في قبورٍ مظلمة من خدورهن وخمرهن حتى يأتيهن الموت فينتقلنَ من مقبرة الدنيا إلى مقبرة الآخرة، فلا بد لي أن أبلغ أمنيتي، وأن أعالج هذا الرأس القاسي المتحجر علاجًا ينتهي بإحدى الحسنيين: إما بكسره أو بشفائه.»

فورد عليَّ من حديثه ما ملأ نفسي همًّا وحزنًا، ونظرت إليه نظرة الراحم الراثي، وقلت: «أعالم أنت أيها الصديق ما تقول؟»

قال: «نعم أقول الحقيقة التي أعتقدها وأدين نفسي بها، واقعةً من نفسك ونفوس الناس جميعًا حيث وقعت.»

قلت: «هل تأذن لي أن أقول لك إنك عشتَ فترةً طويلة في ديار قومٍ لا حجاب بين رجالهم ونسائهم، فهل تذكر أن نفسك حدَّثتك يومًا من الأيام وأنت فيهم بالطمع في شيء مما لا تملك يمينك من أعراض نسائهم، فنلت ما تطمع فيه من حيث لا يشعر مالكه؟»

قال: «ربما وقع لي شيء من ذلك، فماذا تريد؟»

قلت: «أريد أن أقول لك إني أخاف على عِرضك أن يلمَّ به من الناس ما ألمَّ بأعراض الناس منك؟»

قال: «إن المرأة الشريفة تستطيع أن تعيش بين الرجال من شرفها وعفتها في حصنٍ حصين لا تمتد إليه المطامع.»

فتداخلني ما لم أملك نفسي معه، وقلت له: «تلك هي الخدعة التي يخدعكم بها الشيطان أيها الضعفاء، والثُّلْمَة التي يعثر بها في زوايا رءوسكم فينحدر منها إلى عقولكم ومداركم فيفسدها عليكم، فالشرف كلمةٌ لا وجود لها في قواميس اللغة ومعاجمها، فإن أردنا أن نفتش عنها في قلوب الناس وأفئدتهم قلما نجدها، والنفس الإنسانية كالغدير الراكد لا يزال صافيًا رائقًا حتى يسقط فيه حجرٌ فإذا هو مستنقع كدرٌ، والعفة لونٌ من ألوان النفس لا جوهر من جواهرها، وقلَّما تثبت الألوان على أشعة الشمس المتساقطة.»

قال: «أتنكر وجود العفة بين الناس؟»

قلت: «لا أنكرها لأني أعلم أنها موجودةٌ بين البُلْهِ الضعفاء والمتكلفين، ولكني أُنكر وجودها عند الرجل القادر المختلب والمرأة الحاذقة المترفقة إذا سقط بينهما الحجاب وخلا وجه كلٍّ منهما لصاحبه.

في أيِّ جوٍّ من أجواء هذا البلد تريدون أن تبرز نساؤكم لرجالكم؟!

أفي جو المتعلمين، وفيهم من سئل مرة لِمَ لم يتزوج، فأجاب: نساء البلد جميعًا نسائي؟!

أم في جو الطلبة، وفيهم من يتوارى عن أعين خلَّانه وأترابه حياءً وخجلًا إن خلت محفظته يومًا من الأيام من صور عشيقاته وخليلاته، أو أقفرتْ من رسائل الحب والغرام؟!

أم في جو الرعاع والغوغاء، وكثير منهم يدخل البيت خادمًا ذليلًا، ويخرج منه صهرًا كريمًا؟!

وبعد: فما هذا الولع بقصة المرأة، والتَّمَطُّق بحديثها، والقيام والقعود بأمرها وأمر حجابها وسفورها، وحريتها وأسرها، كأنما قد قمتم بكل واجبٍ للأمة عليكم في أنفسكم، فلم يبقَ إلا أن تفيضوا من تلك النعم على غيركم؟!

هذِّبوا رجالكم قبل أن تهذِّبوا نساءكم، فإن عجزتم عن الرجال فأنتم عن النساء أعجز!

أبواب الفخر أمامكم كثيرة، فاطرقوا أيها شئتم، ودعوا هذا الباب موصدًا، فإنكم إن فتحتموه فتحتم على أنفسكم ويلًا عظيمًا وشقاءً طويلًا.

أروني رجلًا واحدًا منكم يستطيع أن يزعم في نفسه أنه يمتلك هواه بين يدي امرأةٍ يرضاها، فأُصَدِّق أن امرأةً تستطيع أن تملك هواها بين يدي رجلٍ ترضاه!

إنكم تُكلفون المرأة ما تعلمون أنكم تعجزون عنه، وتطلبون عندها ما لا تعرفونه عند أنفسكم، فأنتم تخاطرون بها في معركة الحياة مخاطرة لا تعلمون أتربحونها من بعدها أم تخسرونها، وما أحسبكم إلا خاسرين.

ما شكت المرأة إليكم ظلمًا، ولا تقدَّمت إليكم في أن تحلوا قيدها وتطلقوها من أسرها، فما دخولكم بينها وبين نفسها؟ وما تمضُّغكم ليلكم ونهاركم بقصصها وأحاديثها؟

إنها لا تشكو إلا فضولكم وإسفافكم، ومضايقتكم لها ووقوفكم في وجهها حيثما سارت وأينما حلت، حتى ضاق بها وجه الفضاء فلم تجد لها سبيلًا إلا أن تسجن نفسها بنفسها في بيتها فوق ما سجنها أهلها، فأوصدت من دونها بابها، وأسبلت أستارها؛ تبرمًا بكم، وفرارًا من فضولكم، فوا عجبًا لكم! تسجنونها بأيديكم ثم تقفون على باب سجنها تبكونها وتندبون شقاءها!

إنكم لا ترثون لها بل ترثون لأنفسكم، ولا تبكون عليها بل على أيامٍ قضيتموها في ديار يسيل جوها تبرجًا وسفورًا، ويتدفق خلاعةً واستهتارًا، تودون بجدع الأنف لو ظفرتم هنا بذلك العيش الذي خلفتموه هناك.

لقد كنا وكانت العفة في سِقاءٍ من الحجاب موكوء، فما زلتم به تثقبون في جوانبه كل يوم ثقبًا والعفة تتسلل منه قطرةً قطرةً حتى تَقَبَّضَ وتَكَرَّشَ، ثم لم يكفكم ذلك منه حتى جئتم اليوم تريدون أن تحلوا وكاءه حتى لا تبقى فيه قطرة واحدة!

عاشت المرأة المصرية حقبةً من دهرها هادئة مطمئنة في بيتها، راضية عن نفسها وعن عيشتها، ترى السعادة في واجبٍ تؤديه لنفسها، أو وقفة تقفها بين يدي ربها، أو عطفة تعطفها على ولدها، أو جلسة تجلسها إلى جارتها تبثها ذات نفسها وتستبثها

سريرة قلبها، وترى الشرف كل الشرف في خضوعها لأبيها وائتمارها بأمر زوجها، ونزولها عند رضاهما، وكانت تفهم معنى الحب وتجهل معنى الغرام، فتحب زوجها لأنه زوجها، كما تحب ولدها لأنه ولدها، فإن رأى غيرها من النساء أن الحب أساس الزواج رأت هي أن الزواج أساس الحب.

فقلتم لها: إن هؤلاء الذين يستبدون بأمرك من أهلك ليسوا بأوفر منك عقلًا ولا أفضل رأيًا، ولا أقدر على النظر لك من نظرك لنفسك، فلا حق لهم في هذا السلطان الذي يزعمونه لأنفسهم عليك؛ فازدرت أباها، وتمردت على زوجها، وأصبح البيت الذي كان بالأمس عرسًا من الأعراس الضاحكة مناحةً قائمة لا تهدأ نارها، ولا يخبو أوارها.

وقلتم لها: لا بد لك أن تختاري زوجك بنفسك حتى لا يخدعك أهلك عن سعادة مستقبلك، فاختارت لنفسها أسوأ مما اختار لها أهلها، فلم يَزِد عمر سعادتها على يوم وليلة، ثم الشقاء الطويل بعد ذلك والعذاب الأليم.

وقلتم لها: إن الحب أساس الزواج؛ فما زالت تقلب عينيها في وجوه الرجال مصعدةً مصوبةً حتى شغلها الحب عن الزواج فعُنِيَتْ به عنه.

وقلتم لها: إن سعادة المرأة في حياتها أن يكون زوجها عشيقها، وما كانت تعرف إلا أن الزوج غير العشيق، فأصبحت تطلب في كل يوم زوجًا جديدًا يحيي من لوعة الحب ما أمات الزوج القديم، فلا قديمًا استبْقَتْ ولا جديدًا أفادت!

وقلتم لها: لا بد أن تتعلمي لتحسني تربية ولدك، والقيام على شئون بيتك، فتعلمت كل شيءٍ إلا تربية ولدها، والقيام على شئون بيتها!

وقلتم لها: نحن لا نتزوج من النساء إلا من نحبها ونرضاها، ويلائم ذوقها ذوقنا، وشعورها شعورنا، فرأت أن لا بد لها أن تعرف مواقع أهوائكم، ومباهج أنظاركم لتتجمل لكم بما تحبون، فراجعت فهرس حياتكم صفحة صفحة فلم تَرَ فيه غير أسماء الخليعات المستهترات، والضُّحَكَات اللاعبات، والإعجاب بهن والثناء على ذكائهن وفطنتهن؛ فتخلَّعت واستهترت لتبلغ رضاكم، وتنزل عند محبتكم، ثم مشت إليكم بهذا الثوب الرقيق الشفاف تعرض نفسها عليكم عرضًا، كما تعرض الأَمَةُ نفسها في سوق الرقيق، فأعرضتم عنها ونبوتم بها.

وقلتم لها: إنَّا لا نتزوج النساء العاهرات، كأنكم لا تبالون أن يكون نساء الأمة جميعًا ساقطات إذا سَلِمَتْ لكم نساؤكم، فرجعت أدراجها خائبةً منكسرةً وقد أباها الخليع، وترفَّع عنها المحتشم، فلم تجد بين يديها غير باب السقوط فسقطت.

وكذلك انتشرت الريبة في نفوس الأمة جميعًا وتمشَّت الظنون بين رجالها ونسائها، فتعاجز الفريقان، وأظلم الفضاء بينهما، وأصبحت البيوت كالأديرة، لا يَرَى فيها الرائي إلا رجالًا مترهِّبين ونساءً عانسات.

ذلك بكاؤكم على المرأة أيها الراحمون، وهذا رثاؤكم لها وعطفكم عليها!

نحن نعلم — كما تعلمون — أن المرأة في حاجةٍ إلى العلم، فليهذِّبها أبوها أو أخوها، فالتهذيب أنفع لها من العلم، وإلى اختيار الزوج العادل الرحيم، فليُحسِن الآباء اختيار الأزواج لبناتهم، وليجمل الأزواج عشرة نسائهم، وإلى النور والهواء تبرز إليهما وتتمتع فيهما بنعمة الحياة، فليأذن لها أولياؤها بذلك، وليرافقها رفيقٌ منهم في غدواتها وروحاتها، كما يرافق الشاة راعيها خوفًا عليها من الذئاب، فإن عجزنا عن أن نأخذ الآباء والإخوة والأزواج بذلك فلننفض أيدينا من الأمة جميعها، نسائها ورجالها، فليست المرأة بأقدر على إصلاح نفسها من الرجل على إصلاحها.

أعجب ما أعجب له في شئونكم أنكم تعلَّمتم كل شيء إلا شيئًا واحدًا، هو أدنى إلى مدارككم أن تعلموه قبل كل شيءٍ، وهو أن لكل تربةٍ نباتًا ينبت فيها، ولكل نباتٍ زمنًا ينمو فيه!

رأيتم العلماء في أوروبا يشتغلون بكماليات العلوم بين أمم قد فرغت من ضرورياتها؛ فاشتغلتم بها مثلهم في أمَّةٍ لا يزال سوادها الأعظم في حاجة إلى معرفة حروف الهجاء!

ورأيتم الفلاسفة فيها ينشرون فلسفة الكفر بين شعوبٍ ملحدةٍ لها من عقولها وآدابها ما يغنيها بعض الغناء عن إيمانها، فاشتغلتم بنشرها بين أمة ضعيفة ساذجة لا يغنيها عن إيمانها شيء، إن كان هناك ما يُغني عنه!

ورأيتم الرجل الأوروبي حرًّا مطلقًا، يفعل ما يشاء، ويعيش كما يريد؛ لأنه يستطيع أن يملك نفسه وخطواته في الساعة التي يعلم فيها أنه قد وصل إلى حدود الحرية التي رسمها لنفسه فلا يتخطاها، فأردتم أن تمنحوا هذه الحرية نفسها رجلًا ضعيف الإرادة والعزيمة، يعيش من حياته الأدبية في رأس منحدرٍ زلقٍ، إن زلَّت به قدمه مرةً تدهور من حيث لا يستطيع أن يستمسك حتى يبلغ الهوة ويتردى في قرارتها.

ورأيتم الزوج الأوروبي الذي أطفأت البيئة غَيْرته وأزالت خشونة نفسه وحرشتها يستطيع أن يرى زوجته تخاصر من تشاء، وتصاحب من تشاء، وتخلو بمن تشاء، فيقف أمام ذلك المشهد موقف الجامد المتبلد، فأردتم الرجل الشرقي الغيور الملتهي أن يقف موقفه، ويستمسك استمساكه.

ورأيتم المرأة الأوروبية الجريئة المتفتية في كثير من مواقفها مع الرجال تحتفظ بنفسها وكرامتها، فأردتم من المرأة المصرية الضعيفة الساذجة أن تبرز للرجال بروزها، وتحتفظ بنفسها احتفاظها!

وكل نباتٍ يُزرع في أرضٍ غير أرضه، أو في ساعةٍ غير ساعته، إما أن تأباه الأرض فتلفظه، وإما أن ينشب فيها فيفسدها.

إنا نضرع إليكم باسم الشرف الوطني والحرمة الدينية أن تتركوا تلك البقية الباقية من نساء الأمة مطمئناتٍ في بيوتهن، ولا تزعجوهن بأحلامكم وآمالكم كما أزعجتم من قبلهن، فكل جرح من جروح الأمة له دواء إلا جرح الشرف، فإن أبيتم إلا أن تفعلوا فانتظروا بأنفسكم قليلًا ريثما تنتزع الأيام من صدوركم هذه الغَيْرة التي ورثتموها عن آبائكم وأجدادكم لتستطيعوا أن تعيشوا في حياتكم الجديدة سعداء آمنين.»

فما زاد الفتى على أن ابتسم في وجهي ابتسامة الهزء والسخرية، وقال: «تلك حماقاتٌ ما جئنا إلا لمعالجتها، فلنصطبر عليها حتى يقضي الله بيننا وبينها.»

فقلت له: «لك أمرك في نفسك وفي أهلك فاصنع بهما ما تشاء، وائذن لي أن أقول لك إني لا أستطيع أن أختلف إلى بيتك بعد اليوم إبقاءً عليك وعلى نفسي؛ لأني أعلم أن الساعة التي ينفرج لي فيها جانب سترٍ من أستار بيتك عن وجه امرأةٍ من أهلك تقتلني حياءً وخجلًا.» ثم انصرفت، وكان هذا فراق ما بيني وبينه.

وما هي إلا أيامٌ قلائل حتى سمعت الناس يتحدثون أن فلانًا هتك الستر في منزله بين نسائه ورجاله، وأن بيته أصبح مغشيًّا، لا تزال النعال خافقةً ببابه، فذرفتْ عيني دمعةً، لا أعلم هل هي دمعة الغَيْرة على العِرض المذال، أو الحزن على الصديق المفقود؟

مرت على تلك الحادثة ثلاثة أعوام لا أزوره فيها ولا يزورني، ولا ألقاه في طريقه إلا قليلًا فأجيبه تحية الغريب للغريب من حيث لا يجري لما كان بيننا ذكر، ثم أنطلق في سبيلي.

فإني لعائدٌ إلى منزلي ليلة أمس، وقد مضى الشطر الأول من الليل؛ إذ رأيته خارجًا من منزله يمشي مشية الذاهل الحائر وبجانبة جنديٌّ من جنود الشرطة، كأنما هو يحرسه أو يقتاده، فأهمني أمره، ودنوت منه، فسألته عن شأنه، فقال: «لا علم لي بشيءٍ سوى أن هذا الجندي قد طرق الساعة بابي يدعوني إلى مخفر الشرطة، ولا أعلم لمثل هذه الدعوة في مثل هذه الساعة سببًا، وما أنا بالرجل المذنب ولا المريب، فهل أستطيع أن أرجوك يا صديقي بعد الذي كان بيني وبينك أن تصحبني الليلة في وجهي هذا علَّني أحتاج إلى بعض المعونة فيما قد يعرض لي هناك من الشئون؟»

ومشيت معه صامتًا لا أحدثه، ولا يقول لي شيئًا، ثم شعرت كأنه يُزَوِّر في نفسه كلامًا يريد أن يُفضي به إليَّ، فيمنعه الخجل والحياء، ففاتحته الحديث وقلت له: «ألا تستطيع أن تتذكر لهذه الدعوة سببًا؟»

فنظر إليَّ نظرةً حائرةً، وقال: «إن أخوف ما أخافه أن يكون قد حدث لزوجتي الليلة حادثٌ، فقد رابني من أمرها أنها لم تعد إلى المنزل حتى الساعة، وما كان ذلك شأنها من قبل.»

قلت: «أما كان يصحبها أحد؟»

قال: «لا.»

قلت: «ألا تعلم المكان الذي ذهبت إليه؟»

قال: «لا»، قلت: «ومِمَّ تخاف عليها؟»

قال: «لا أخاف شيئًا سوى أني أعلم أنها امرأةٌ غيورٌ حمقاء، فلعل بعض الناس حاول العبث بها في طريقها، فشرست عليه، فوقعت بينهما واقعةٌ انتهى أمرها إلى مخفر الشرطة.»

وكنا قد وصلنا إلى المخفر، فاقتادنا الجندي إلى قاعة المأمور، فوقفنا بين يديه، فأشار إلى جنديٍّ أمامه إشارة لم نفهمها، ثم استدنى الفتى إليه وقال له: «يسوءني أن أقول لك يا سيدي إن رجال الشرطة قد عثروا الليلة في مكان من أمكنة الريبة برجل وامرأة، في حالٍ غير صالحة، فاقتادوهما إلى المخفر، فزعمت المرأة أن لها بك صلةً، فدعوناك لتكشف لنا الحقيقة في أمرها، فإن كانت صادقة أَذِنَّا لها بالانصراف معك إكرامًا لك وإبقاءً على شرفك، وإلا فهي امرأةٌ عاهرةٌ لا نجاة لها من عقاب الفاجرات، وها هما وراءك فانظرهما.»

وكان الجندي قد جاء بهما من غرفة أخرى، فالتفت وراءه فإذا المرأة زوجته وإذا الرجل أحد أصدقائه، فصرخ صرخة رجفت لها جوانب المخفر وملأت نوافذه وأبوابه عيونًا وآذانًا، ثم سقط في مكانه مغشيًّا عليه. فأشرت على المأمور أن يرسل المرأة إلى منزل أبيها، ففعل، وأطلق سبيل صاحبها، ثم حملنا الفتى في مركبةٍ إلى منزله ودعونا له الطبيب، فقرر أنه مصابٌ بحمى دماغية شديدة، ولبث ساهرًا بجانبه بقية الليل يعالجه حتى دنا الصبح، فانصرف على أن يعود متى دعوناه، وعهد إليَّ بأمره، فلبثتُ بجانبه أرثي لحاله وأنتظر قضاء الله فيه، حتى رأيته يتحرك في مضجعه، ثم فتح عينيه فرآني، فلبث شاخصًا إليَّ هنيهةً كأنما يحاول أن يقول لي شيئًا فلا يستطيعه، فدنوت منه وقلت له: «هل من حاجة يا سيدي؟»

فأجاب بصوتٍ ضعيفٍ خافتٍ: «حاجتي ألا يدخل عليَّ من الناس أحد.»

قلت: «لن يدخل عليك إلا من تريد.»

فأطرق هنيهةً، ثم رفع رأسه فإذا عيناه مخضلتان بالدموع، فقلت: «ما بكاؤك يا سيدي؟»

قال: «أتعلم أين زوجتي الآن؟»

قلت: «وماذا تريد منها؟»

قال: «لا شيء سوى أن أقول لها إني قد عفوت عنها.»

قلت: «إنها في بيت أبيها.»

قال: «وا رحمتاه لها ولأبيها ولجميع قومها، فقد كانوا قبل أن يتصلوا بي شرفاء أمجادًا، فألبستهم مذ عرفوني ثوبًا من العار لا تبلوه الأيام.

من لي بمن يبلغهم عني جميعًا أنني مريضٌ مشرفٌ على الموت، وأنني أخشى لقاء الله إن لقيته بدمائهم، وأنني أضرع إليهم أن يصفحوا عني ويغتفروا زلتي قبل أن يسبق إليَّ أجلي؟

لقد كنت أقسمت لأبيها يوم اهْتَدَيْتُهَا أن أصون عرضها صيانتي لحياتي، وأن أمنعها مما أمنع منه نفسي، فحنثتُ في يميني، فهل يغفر لي ذنبي فيغفر لي الله بغفرانه؟

نعم إنها قتلتني! ولكنني أنا الذي وضعت في يدها الخنجر الذي أغمدتْهُ في صدري، فلا يسألها أحد عن ذنبي، البيت بيتي، والزوجة زوجتي، والصديق صديقي، وأنا الذي فتحت باب بيتي لصديقي إلى زوجتي، فلم يذنب إليَّ أحدٌ سواي.»

ثم أمسك عن الكلام هنيهة، فنظرت إليه فإذا سحابةٌ سوداء تنتشر فوق جبينه شيئًا فشيئًا، حتى لبست وجهه، فزفر زفرة خِلتُ أنها خرقت حجاب قلبه، ثم أنشأ يقول: «آه، ما أشد الظلام أمام عيني! وما أضيق الدنيا في وجهي! في هذه الغرفة، على هذا المقعد، تحت هذا السقف كنت أراهما جالسَيْن يتحدثان فتُملأ نفسي غبطةً وسرورًا، وأحمد الله على أن رزقني بصديقٍ وفيٍّ يُؤنس زوجتي في وحدتها، وزوجة سمحة كريمة تكرم صديقي في غيبتي. فقولوا للناس جميعًا: إن ذلك الرجل الذي كان يفخر بالأمس بذكائه وفطنته ويزعم أنه أكيس الناس وأحزمهم، قد أصبح يعترف اليوم أنه أبله إلى الغاية من البلاهة، وغبيٌّ إلى الغاية التي لا غاية وراءها. وا لهَفًا على أمٍّ لم تلدني وأب عاقر لا نصيب له من البنين!

لعل الناس كانوا يعلمون من أمري ما كنت أجهل، ولعلهم كانوا إذا مررت بهم يتناظرون ويتغامزون ويبتسم بعضهم إلى بعض، أو يحدِّقون إليَّ ويطيلون النظر في وجهي، ليروا كيف تتمثل البلاهة في وجوه البُله، والغباوة في وجوه الأغبياء!

ولعل الذين كانوا يتوددون إليَّ ويتمسحون بي من أصدقائي إنما كانوا يفعلون ذلك من أجلها لا من أجلي، ولعلهم كانوا يسمونني فيما بينهم قَوَّادًا ويسمون زوجتي مومسًا وبيتي ماخورًا، وأنا عند نفسي أشرف الناس وأنبلهم!

فوا رحمتاه لي إن بقيت على ظهر الأرض بعد اليوم ساعة واحدة! ووا لهفًا على زاوية منفردة في قبرٍ موحشٍ يطويني ويطوي عاري معي!»

ثم أغمض عينيه وعاد إلى ذهوله واستغراقه.

وهنا دخلتِ الحجرة مُرضع ولده تحمله على يدها حتى وضعته بجانب فراشه ثم تركته وانصرفت، فما زال الطفل يدب على أطرافه حتى علا صدر أبيه، فأحس به ففتح عينيه، فرآه فابتسم لمرآه، وضمه إلى صدره ضمة الرفق والحنان، وأدنى فمه من وجهه ليقبله، ثم انتفض فجأةً واستسر بشَرِّه ودفعه عنه بيده دفعة شديدة وأخذ يصيح: «أبعدوه عني، لا أعرفه، ليس لي أولاد ولا نساء، سلوا أمه عن أبيه من هو واذهبوا به إليه! لا ألبس العار في حياتي وأتركه أثرًا خالدًا ورائي بعد مماتي.»

وكانت المُرضع قد سمعت صياح الطفل فعادت إليه وحملته وذهبت به؛ فسمع صوته وهو يبتعد عنه شيئًا فشيئًا فأنصت إليه واستعبر باكيًا، وصاح: «أرجعوه إليَّ.» فعادت به المرضع، فتناوله من يدها وأنشأ يقلب نظره في وجهه ويقول: «في سبيل الله يا بني ما خلَّف لك أبوك من اليتم، وما خلَّفتْ لك أمك من العار، فاغفر لهما ذنبهما إليك، فلقد كانت أمك امرأةً ضعيفة فعجزت عن احتمال صدمة القضاء فسقطت، وكان أبوك أحسن في جريمته التي اجترمها، فأساء من حيث أراد الإحسان! سواء أكنت ولدي يا بني أم ولد الجريمة فإني قد سعدت بك حقبة من الدهر، فلا أنسى يدك عندي حيًّا أو ميتًا!»

ثم احتضنه إليه، وقبَّله في جبينه قبلة لا أعلم هل هي قبلة الأب الرحيم أو المحسن الكريم؟

وكان قد بلغ منه الجهد، فعاودته الحمى وغلت نارها في رأسه، وما زال يثقل شيئًا فشيئًا حتى خفتُ عليه التلف، فأرسلت وراء الطبيب فجاء وألقى عليه نظرة طويلة ثم استردها مملوءة يأسًا وحزنًا، ثم بدأ ينزع نزعًا شديدًا ويئن أنينًا مؤلمًا، فلم تبقَ عينٌ من العيون المحيطة به إلا ارفضَّت عن كل ما تستطيع أن تجود به من مدامعها.

فإنا لجلوسٌ حوله وقد بدأ الموت يسبل أستاره السوداء على سريره إذا امرأةٌ مؤتزرةٌ بإزار أسود قد دخلت الحجرة، وتقدمت نحوه ببطء حتى ركعت بجانبه، ثم أكبَّت على يده الموضوعة فوق صدره فقبلتها، وأخذت تقول له: «لا تخرج من الدنيا وأنت مرتابٌ في ولدك، فإن أمه تعترف بين يديك وأنت ذاهبٌ إلى ربك أنها وإن كانت قد دنت من الجريمة ولكنها لم ترتكبها، فاعفُ عني يا والد ولدي، واسألِ الله عندما تقف بين يديه أن يُلحقني بك، فلا خير لي في الحياة من بعدك.»

ثم انفجرت باكيةً ... ففتح عينيه، وألقى على وجهها نظرةً باسمة، كانت هي آخر عهده بالحياة وقضى.

الآن عُدت من المقبرة بعدما دفنت صديقي بيدي وأودعت حفرة القبر ذلك الشباب الناضر، والروض الزاهر، وجلست لكتابة هذه السطور وأنا لا أكاد أملك مدامعي وزفراتي، فلا يُهَوِّن وجدي عليه إلا أن الأُمَّة كانت على باب خطرٍ عظيمٍ من أخطارها، فتقدم هو أمامها إلى ذلك الخطر وحده فاقتحمه فمات شهيدًا، فنجت بهلاكه.

الذكرى

مترجمة

وقف أبو عبد الله آخر ملوك غرناطة بعد انكساره أمام جيوش الملك فرديناند والملكة إيزابيلا على شاطئ الخليج الرومي تحت ذيل جبل طارق قبل نزوله إلى السفينة المعدة لحمله إلى أفريقيا، وقد وقف حوله نساؤه وأولاده وعظماء قومه من بني الأحمر، فألقى على ملكه الذاهب نظرةً طويلة لم يسترجعها إلا مبللةً بالدمع، ثم أدنى رداءه من وجهه وأنشأ يبكي بكاءً مرًّا، وينشج نشيجًا محزنًا حتى بكى مَن حوله لبكائه، وأصبح شاطئ البحر كأنه مناحة قائمة تتردد فيها الزفرات، وتسبق العبرات، فإنه لواقفٌ موقفه هذا وقد ذهل عن نفسه وموقفه إذ أحس هاتفًا يهتف باسمه، بصوتٍ كأنما ينحدر إليه من علياء السماء، فرفع رأسه فإذا شيخٌ ناسكٌ متكئٌ على عصاه واقفٌ على باب مغارةٍ من مغارات الجبل المشرف عليه ينظر إليه ويقول: «نعم، لك أن تبكي أيها الملك الساقط على ملكك بكاء النساء، فإنك لم تحتفظ به احتفاظ الرجال. إنك ضحكت بالأمس كثيرًا، فابكِ اليوم بمقدار ما ضحكت بالأمس، فالسرور نهار الحياة والحزن ليلها، ولا يلبث النهار الساطع أن يعقبه الليل القاتم.

لو أن ما ذهب من يدك من ملكك ذهب بصدمةٍ من صدمات القدر، أو نازلةٍ من نوازل القضاء، من حيث لا حول لك في ذلك ولا حيلة، لهان أمره عليك، أما وقد أضعته بيدك، وأسلمته إلى عدوك باختيارك، فابكِ عليه بكاء النادم المتفجِّع الذي لا يجد له عن مصابه عزاءً ولا سلوى.

لا يظلم الله عبدًا من عباده، ولا يريد بأحدٍ من الناس في شأن من الشئون شرًّا ولا ضيرًا، ولكن الناس يأبون إلا أن يقفوا على حافة الهوة الضعيفة فتزل بهم أقدامهم، ويمشوا تحت الصخرة البارزة المشرفة فتسقط على رءوسهم.

لم تقنع بما قسم الله لك من الرزق، فأبيت إلا الملك والسلطان، فنازعت عمك الأمر، واستعنت عليه بعدوك وعدوه، فتناول رأسيكما معًا، وما زال يضرب أحدهما بالآخر حتى سال تحت قدميكما قليبٌ من الدم فغرقتما فيه معًا.

لي فوق هذه الصخرة يا بني الأحمر سبعة أعوامٍ أنتظر فيها هذا المصير الذي صرتم إليه، وأترقَّب الساعة التي أرى فيها آخر ملكٍ منكم يرحل عن هذه الديار رحلةً لا رجعة من بعدها؛ لأني أعلم أن المُلك الذي يتولى أمره الجاهلون الأغبياء لا دوام له ولا بقاء.

اتخذ بعضكم بعضًا عدوًّا؛ وأصبح كل واحد منكم حربًا على صاحبه، فسقتم المسلمين إلى ميادين القتال يضرب بعضكم وجوه بعض، والعدو رابضٌ من ورائكم يتربص بكم الدوائر، ويرى أن كلًّا منكم قائدٌ من قواده ينبعث بين يديه لقتال أعدائه، والمناضلة على ملكه، حتى رآكم تتهافتون على أنفسكم ضعفًا ووهنًا فاقتحمكم، فما هي إلا جولةٌ أو جولتان حتى ظفر بكم معًا.

ستقفون غدًا بين يدي الله يا ملوك الإسلام، وسيسألكم عن الإسلام الذي أضعتموه وهبطتم به من علياء مجده حتى ألصقتم أنفه بالرغام، وعن المسلمين الذين أسلمتموهم بأيديكم إلى أعدائهم ليعيشوا بينهم عيش البائسين المستضعفين، وعن مدن الإسلام وأمصاره التي اشتراها آباؤكم بدمائهم وأرواحهم ثم تركوها في أيديكم لتذودوا عنها، وتحملوا ذمارها، فلم تحركوا في شأنها ساكنًا حتى غلبكم أعداؤكم عليها، فأصبحتم تعيشون فيها عيش الأذلاء، وتُطردون منها كما يُطرد الغرباء، فماذا يكون جوابكم إن سئلتم عن هذا كله غدًا؟

ها هي ذي النواقيس ترن في شرفات المآذن بدل الأذان، وها هي ذي المساجد تطأ نعال الصليبيين في تربتها مواقع جباه المسلمين، وها هو ذا المسلم يفر بدينه من مكانٍ إلى مكان، ويلوذ بأكناف الهضاب والشعاب، لا يستطيع أن يؤدي شعيرةً من شعائر دينه إلا في غارٍ كهذا الغار الذي أعيش فيه!

ليت المسلمين عاشوا دهرهم فوضى لا نظام لهم ولا ملك ولا سلطان، كما يعيش المشردون في آفاق البلاد، فقد كان خيرًّا لهم من أن يتولى أمرهم رجال مثلكم طامعون

مستبدون يلفون على أعناقهم جميعًا غلًّا واحدًا يسوقونهم به إلى موارد التلف والهلاك من حيث لا يستطيعون ذودًا عن أنفسهم، وما تفعل الفوضى بأمَّةٍ ما يفعل بها الاستبداد.

يسألكم الله يا بني الأحمر عني وعن أولادي الذين انتزعتموهم من يدي انتزاعًا أحوج ما كنت إليهم، وسقتموهم إلى ميادين القتال ليقاتلوا إخوانهم المسلمين قتالًا لا شرف فيه ولا فخار، حتى ماتوا جميعًا موت الأذلاء الأدنياء، فلا أنتم تركتموهم بجانبي آنس بهم في وحشتي وألجأ إلى معونتهم في شيخوختي، ولا أنتم ذهبتم بهم إلى ميدان قتالٍ شريفٍ فأتعزى عنهم من بعدهم بأنهم ماتوا فداءً عن دينهم ووطنهم، فهأنذا عائشٌ من بعدهم وحدي في هذا الغار الموحش، فوق هذه الصخرة المنقطعة أبكي عليهم، وأسأل الله أن يلحقني بهم، فمتي يستجيب الله دعائي؟»

ثم اختنق صوته بالبكاء، فأدار وجهه ومشى بقدم مطمئنة يتوكأ على عصاه حتى دخل مغارته وغاب عن العيون، فنالت كلماته من نفس الأمير ما لم يَنَل منها ضياع ملكه وسقوط عرشه، فصاح: «ما هذا بشرًا، إنما هو صوت العدل الإلهي ينذرني بشقاء المستقبل فوق شقاء الماضي، فليصنع الله بي ما يشاء، فعدلٌ منه كل ما صنع.»

ثم انحدر إلى سفينته وانحدر أهله وراءه، فسارت السفينة بهم تشق عباب الماء شقًّا، فسجل التاريخ في تلك الساعة: أن قد تم جلاء العرب عن الأندلس بعدما عمروها ثمانمائة عام.

بعد مرور أربعة وعشرين عامًا على تلك الحوادث، لم يبقَ في إفريقية حيٌّ من بني الأحمر إلا فتى في العشرين من عمره، اسمه «سعيد» لم يَرَ غرناطة، ولا قصر الحمراء، ولا المرج، ولا جنة العريف، ولا نهر شنيل، ولا عين الدمع، ولا جبل الثلج، ولكنه ما زال يحفظ في ذاكرته من عهد الطفولة تلك الأناشيد الأندلسية البديعة التي كان يترنم بها نساء قومه حول مهده، ويُرددن فيها ذكر آبائه وأجداده وآثار أيديهم وعزة سلطانهم في تلك البقاع، وتلك المراثي المحزنة المؤثرة التي بكى فيها شعراء الأندلس ذلك المجد الساقط والمُلك المضاع، فكان كلما خلا إلى نفسه ردد تلك المراثي بنغمة شجية محزنة تستثير عبرته، وتهيج أشجانه، فلا يزال يبكي وينتحب حتى يشرف على التلف، فكان لا يتمنى على الله من كل ما يتمنى امرؤ على ربه في حياته إلا أن يرى غرناطة ساعةً من زمانٍ يشفي بها غُلَّة نفسه، ثم ليصنع الدهر به بعد ذلك ما يشاء.

وكان كلما همَّ بالذهاب إليها قعد به عن ذلك أن وراءه عجوزًا من أهله مريضة، وما كان يستطيع أن يتركها، ولا يجد من يعتمد عليه في القيام بشأنها حتى وافاها

أجلها، فركب البحر من سبتة إلى شاطئ ملقة، ثم انحدر منها إلى غرناطة متنكرًا في ثوب طبيبٍ عربيٍّ من أطباء الأعشاب يَتَبَقَّل في جبال الأندلس وسهولها حتى بلغ ضاحيتها ساعة الأصيل، فوقف على هضبة من هضاب جبل الثلج، فرأى الأمواه تنزلق عنه في هدوء وسكون، كأنها فوق سطحه اللامع المتلألئ قميصٌ من النور، أو قبةٌ من البلور، حتى تصل إلى سفحه فإذا هي حياتٌ بيضاء مذعورة، تنبعث ههنا وههنا، لا هم لها إلا النجاة من يد مطاردها حتى تعثر بجدول ماء في طريقها فتدغم فيه وتنساب في أحشائه.

ثم التفت إلى المدينة فرأى على البعد أبراجها العقيقية الحمراء، وقبابها العالية الشماء، ومآذنها الذاهبة في جو السماء، فوقف أمام هذا المنظر الجليل المهيب موقف الخاشع المتخضع، وضم إحدى يديه إلى الأخرى، ووضعهما على صدره كأنما هو قائم أمام المحراب يؤدي صلاته، ولبث على ذلك برهة ثم صاح بصوتٍ عالٍ رددته الغابات والحرجات يقول: «هذا ميراث آبائي وأجدادي، لم يبقَ لي منه إلا وقفة بين يديه كوقفة الثاكل المفجوع بين أيدي الأطلال البوالي، والآثار الدوارس.

هذه مضاجعهم ينام فيها أعداؤهم، وهم لا مضاجع لهم إلا رمال الصحراء وكثبان الفلوات.

هذه قصورهم، تشرف على الأرض الفضاء، وتطل من عيون نوافذها، كأنما تترقب أن يعودوا إليها فيعمروها كما كانوا فلا يفعلون.

هذه قبابهم وأبراجهم رافعة رأسها ليلها ونهارها إلى السموات العلا، تدعو الله أن يُعيد إليها بُناتها وحماتها فلا يستجاب لها دعاء.

في هذه البساتين كانوا ينعمون، وتحت هذه الظلال كانوا يقيلون، وعلى ضفاف هذه الأنهار كانوا يغدون ويروحون، واليوم لا غادٍ منهم ولا رائح، ولا سانح تحت هذه السماء ولا بارح!»

ثم نظر إلى الأفق فرأى الشمس تنحدر إلى مغربها، ورأى جيش الليل يطارد فلول جيش النهار فيبددها بين يديه تبديدًا، فتهافت على نفسه وهو يقول: «هكذا تدول الدولات وتسقط التيجان، وهكذا تحل الظلمات محل الأنوار، وهكذا تنتشر سحب الموت على وجه الحياة.»

ثم توسَّد ذراعه واستغرق في نومه بين وطاء الأرض وغطاء السماء، فلم يستفق حتى مضت دولة الليل، فمشى إلى نهرٍ جارٍ في سفح الجبل فصلى عنده صلاة الفجر، ثم انحدر إلى المدينة يفتش عن خانٍ يأوي إليه، فلم يجد في طريقه من يرشده إلى طلبته

حتى بلغ «شنيل»، فمشى على ضفته يتفقد البذور ويتلمس الأعشاب وينتظر يقظة المدينة بعد هجعتها.

وإنه لكذلك إذ انفتح بين يديه باب قصرٍ عظيم، وإذا فتاة إسبانية خارجة منه قد أسبلت على وجهها خمارًا أسود شفافًا، وأرسلت على صدرها صليبًا ذهبيًّا صغيرًا، ومشى وراءها غلامٌ يحمل على يده الكتاب المقدس، فلمحته في مكانه فأدهشها موقفه، فدنت منه ورفعت قناعها عن وجهها، فإذا الشمس طالعة حسنًا وبهاءً، وقالت له بلسان عربي تخالطه بعض العجمة: «أغريبٌ أنت عن هذا البلد أيها الفتى؟»

قال: «نعم، لقد نزلت به الساعة فلم أعرف طريق الخان الذي يأوي إليه الغرباء، ولم أجد في طريقي من يدلني عليه.»

فسمعتْ في صوته رنة الشرف، ورأت بين أعطافه مخائل النعمة فأهمها أمره، وأشارت إليه أن يتبعها لتدله على ما يُريد، فمشى بجانبها حتى بلغا موضع الخان، فحيَّته بابتسامةٍ عذبة، وقالت له: «لا تنسَ أن تزورني أيها الغريب كلما عرضت لك حاجة.» ثم سارت في طريق كنيستها.

كما أن السماء في ظلمة الليل تختلف إليها النجوم فتضيء صفحتها، وتمر بها الشهب فتلمع في أرجائها، حتى إذا طلعت الشمس من مشرقها محا ضوؤها ضوء جميع تلك النيرات؛ كذلك القلب الإنساني لا تزال تمر به مختلف العواطف وأشتات الأهواء مجتمعةً ومفترقة، حتى إذا بلغ وأشرقت عليه شمس الحب غربت بجانبها جميع تلك العواطف والأهواء.

فقد أصبح الأمير ينظر إلى غرناطة منذ الساعة بعينٍ غير العين التي كان ينظر بها إليها من قبل، ويرى في وجهها صورة الأنس بعد الوحشة، والنور بعد الظلمة، والحياة بعد الموت، فسكن ثائره وبردت جوانحه، وهدأت في نفسه ثورة الغضب التي كانت لا تزال تعتلج بين أضلاعه، فكان إذا مر بمسجدٍ من تلك المساجد التي استحالت إلى كنائس، استطاع أن يقف أمامه هنيهةً علَّه يرى الفتاة الإسبانية بين الداخلات إليه أو الخارجات منه، وإذا رأى الصليب مشرفًا على رأس مئذنةٍ ذكر الصليب الذهبي الجميل الذي رآه على صدرها يوم اللقاء، فاغتفر منظر هذا لمنظر ذاك، وإذا سمع أصوات النواقيس ترن في أجواز الفضاء ذكر أنه كان يسمع ذلك الصوت الرنان في الساعة التي رآها فيها، فأَنِسَ به وسكنت نفسه إليه.

وكذلك أصبح هذا الأمير المسكين ولا همَّ له إلا أن يتمشى صبيحة كل يوم على ضفاف نهر «شنيل» يقلِّب نظره في أبواب القصور المشرفة على ذلك النهر؛ علَّه يعرف

قصر الفتاة فلا يعرفه، وفي وجوه الغاديات والرائحات من الفتيات علَّه يراها بينهن فلا يراها، حتى إذا نال منه اليأس انكفأ راجعًا إلى مقبرة آبائه في ظاهر المدينة فجلس بين القبور يذرف دموعًا غزارًا، لا يعلم هل هي دموع الذكرى القديمة أو دموع الذكرى الجديدة!

نكب الدهر «فلورندا» منذ عامين نكبةً لا تزال لوعتها متصلةً بقلبها حتى اليوم، فقد كان أبوها رئيس جمعية «العصابة المقدسة» التي قامت في وجه الحكومة أعوامًا طوالًا، تطالبها بالحرية الدينية والشخصية لجميع الشعوب المحكومة على اختلاف مذاهبها وأجناسها، حتى أعيا رجال الحكومة أمرها، فدسوا لرئيسها من قتله غيلةً تحت ستار الظلام، فحزنت ابنته عليه وعلى أمها التي ماتت على إثره حزنًا شديدًا ما كان يفارقها في جميع غدواتها وروحاتها، فأصبحت وهي لم تسلخ الثامنة من عمرها تعيش في قصورها عيش الزاهدات المتبتلات، فكان لا يراها الرائي إلا ذاهبةٌ إلى الكنيسة أو عائدة منها، لا يصحبها إلا غلامها، أو واقفةً على أطلال الدولة الماضية ورسومها تُقلِّب فيها نظر العظة والاعتبار، أو هائمةً على وجهها في مروج غرناطة وبساتينها حتى ينزل ستار الليل فتعود إلى قصرها، وكذلك كان شأنها في جميع أيامها، حتى سماها أهل غرناطة «الراهبة الجميلة».

فإنها لسائرةٌ يومًا بجانب مقبرة بني الأحمر، إذ لمحت على البعد فتًى عربيًّا على أحد القبور كأنما يقبِّل صفائحه ويبلُّ تربته بدموعه، فرثت لحاله، ومشت نحوه حتى دانته فأحس بها، فرفع رأسه، فعرفها وعرفته، فقالت له: «إنك تبكي ملوكك بالأمس أيها الفتى، فابكِهم كثيرًا، فقد جفَّ تراب قبورهم لقلة من يبكي عليهم!»

قال: «أترثين لهم يا سيدتي؟»

قالت: «نعم؛ لأنهم كانوا عظماء فنكبهم الدهر، وليس أحق بدموع الباكين من العظماء الساقطين.»

قال: «شكرًا لك يا سيدتي، فهذه أول ساعة شعرت فيها ببرد العزاء يدب في صدري مذ وطئتْ قدماي أرضكم هذه.»

قال: «هل زرت قصورهم وآثارهم التي تركوها من بعدهم في هذه الديار؟»

فأطرق قليلًا ثم رفع رأسه، فإذا دمعةٌ تترجج في مقلتيه وقال: «لا يا سيدتي، لقد حاولت الدنو منها فطردني عنها الموكلون بأبوابها، كأنما هم يجهلون أن ليس بين الأحياء جميعهم في هذا العالم كله من هو أولى بها مني.»

قالت: «أتمتُّ إلى أحدٍ من أصحابها بنسبٍ أو رحمٍ؟»

قال: «لا يا سيدتي، ولكني عبدهم ومولاهم، وصنيعة أيديهم، وغرس نعمتهم، فلا أنسى ولاءهم ما حييت.»

قالت: «إن رأيتك غدًا في مثل هذه الساعة في هذا المكان ذهبت بك إلى ما تريد منها.»

قال: «لئن فعلت لا يكونن امرؤٌ على وجه الأرض أشكر لنعمتك مني.» فحيته وانصرفت، ومضى هو إلى خانه بين صبابةٍ تقيمه وتقعده، وأَمل يُميته ويحييه.

وفت «فلورندا» لصديقها العربي بما وعدته به، فجاءته في اليوم الثاني فأزارته بعض الآثار، ثم جاءته في اليوم الثالث فأزارته بعضًا آخر منها، وهكذا، ما زالا يجتمعان كل يوم ويفترقان، ويختلفان إلى ما شاءا من الرسوم والآثار، لا ينكر الناس من أمرهما شيئًا، فقد كانوا يقولون إذا رأوهما معًا: إن الراهبة الجميلة تحاول أن تهدي الفتى العربي إلى دينها القويم، حتى استحال العطف الذي كانت تضمره له في نفسها مع الأيام إلى حبٍّ شديد، وكذلك العطف دائمًا طريق الحب، أو هو الحب نفسه لابسًا ثوبًا غير ثوبه، إلا أن أحدًا منهما لم يجرؤ أن يكاشف صاحبه بما أضمره له في نفسه، حتى جاء اليوم الذي عزم على زيارة قصر الحمراء، وهو آخر ما بقي بين أيديهما من الآثار، فلا لقاء بينهما بعد اليوم.

وقف الأمير أمام قصر الحمراء فرأى سماءً تطاول السماء، وطودًا يُناطح الجوزاء، وهضبة تشرف على الهضاب، وسحابة تمر فوق السحاب، وجبلًا تحسر عن قمته العيون، وتضل في جوانبه الظنون، وحصنًا تتقاصر عنه يد الأيام، وتتهافت من حوله السنون والأعوام.

ثم دخل فإذا ملكٌ كبير، وجنةٌ وحرير، وقبابٌ تفضي إليها النجوم بالأسرار، وأبراج تنزلق عن سطوحها يد الأقدار، وصحون مفروشة بألوان الحصباء، كأنها الرياض الزهراء، وجدرانٌ صقيلةٌ ملساء تصف ما بين يديها من الأشياء، كما تصف المرآة وجه الحسناء، وكأن كل جدارٍ منها لجةٌ متلاطمة الأمواج، يحبسها عن الجريان لوحٌ من زجاج، فمشى يقلب نظر العظة والاعتبار، بين تلك المشاهد والآثار، ويتنغم في نفسه بقول القائل:

وَقَفْتُ بالحمراءِ مُسْتَعْبِرًا   مُعتبِرًا أَنْدُبُ أَشْتَاتَا
فَقُلْتُ: يَا حَمْرَاءُ هَلْ رَجْعَةٌ؟   قَالَتْ: وَهَلْ يَرْجِعُ مَنْ مَاتَا؟

فَلَمْ أَزَلْ أَبْكِي عَلَى رَسْمِهَا هَيْهَاتَ يُغْنِي الدَّمْعُ هَيْهَاتَا
كَأنَّما آثارُ مَنْ قَدْ مَضَوْا نَـوادِبُ يَـنْـدُبْـنَ أَمْـوَاتَـا

حتى وصل إلى الساحة الكبرى، فرأى صحنًا مفروشًا ببساطٍ من المرمر الأصفر، قد دارت به في جهاته الأربع أربعة صفوفٍ من الأعمدة النحاف الطوال، وتراءت في جوانبه حجراتٌ متقابلات، تعلوها قبابٌ مشرفاتٌ، فعلم أنها حجرات الأمراء والأميرات من أهل بيته، فهاجت في نفسه الذكرى، وشعر أن صدره يحاول أن ينشق عن قلبه حزنًا ووجدًا.

وأحس بحاجته إلى البكاء فاستحيا أن يبكي أمام «فلورندا»، فتركها في مكانها لاهيةً عنه بالنظر إلى بعض النقوش، ومشى إلى بعض تلك القاعات حتى داناها، فكان أول ما تناول نظره منها سطرًا مكتوبًا على بابها، فما قرأه حتى صاح صيحةً شديدة قائلًا: «وا أبتاه!» وسقط مغشيًّا عليه، فلم يستفق إلا بعد ساعة طويلة، ففتح عينيه فوجد رأسه في حجر «فلورندا»، ووجد في عينيها آثار البكاء، فقالت له: «لقد كنتُ أعلم قبل اليوم أنك تكاتمني شيئًا من أسرار نفسك، والآن عرفت أنك لست عبد بني الأحمر ولا مولاهم كما تقول، ولكنك أحد أمرائهم، وأنك الساعة في قصر جدك وأمام حجرة أبيك، فما أسوأ حظكم يا بني الأحمر! وما أعظم شقاءك أيها الأمير المسكين!»

فلم يجد سبيلًا بعد ذلك إلى كتمان أمره، فأنشأ يقص عليها قصته وقصة أهل بيته، وما صنعت يد الدهر بهم مذ جلوا عن الأندلس حتى اليوم، فلما فرغ من قصته نظر إليها نظرةً منكسرة وقال لها: «فلورندا، إن جميع ما لقيته من الشقاء بالأمس يصغر بجانب الشقاء الذي تدخره لي الأيام غدًا.»

قالت: «وأي شقاءٍ ينتظرك أكثر مما أنت فيه؟»

فأطرق هنيهةً ثم رفع رأسه وقال: «إنني أستطيع أن أحتمل كل شيء في الحياة إلا أن أفارقك فراقًا لا لقاء من بعده!»

قالت: «أتحبني أيها الأمير؟»

قال: «نعم، حب الزهرة الذابلة للقطرة الهاطلة.»

قالت: «وهل تستطيع أن تحب فتاةً مسيحيةً لا تدين بدينك؟»

قال: «نعم؛ لأن طريق الدين في القلب غير طريق الحب، ولقد وجدت فيك الصفات التي أحبها فأحببتك لها، ثم لا شأن لي بعد ذلك فيما تعتقدين.»

قالت: «وهل تستطيع أن تحب بلا أمل؟»

قال: «ولِمَ لا يكون الحب نفسه غايةً من الغايات التي نجد فيها السعادة إن ظفرنا بها؟ ومتى كان للسعادة في هذه الحياة نهاية محدودة، فلا نجد الراحة إلا إذا وصلنا إلى نهايتها؟»

وكان الليل قد أظلَّهما، فبرحا مكانهما ومشيا يتحدثان حتى بلغا الموضع الذي اعتادا أن يفترقا فيه، فوضعت «فلورندا» يدها في يده وقالت له: «سأحبك كما أحببتني أيها الأمير، وسيكون حبي لك بلا أمل كحبك، ولقد فرَّق الدين بين جسدينا، فليجمع الحب بين قلبينا.» وتركته وانصرفت.

ثم مرت بهما بعد ذلك أيامٌ سعدا فيها بنعمة العيش سعادةً أنستهما جميع ما لقيا في حياتهما الماضية من شقاءٍ وعناء، فأصبحا فوق أرض غرناطة وتحت سمائها طائِرَيْن جميلَيْن يطيران حيث يصفو لهما وجه السماء، وتترقرق صفحة الهواء، ويقعان حيث يطيب لهما التغريد والتنقير، فليت الدهر ينام عنهما ويتركهما وشأنهما، ولا يَنْفُسُ عليهما هذه الساعات القليلة من السعادة التي ابتاعاها بكثير من دموعهما وآلامهما، والتي لا يملكان من سعادة الحياة سواها، فإن خسراها خسرا كل شيءٍ.

بينما هما جالسان ذات يوم على ضفة جدولٍ من جداول عين الدمع، إذ مر بهما «الدون رودريك» ابن حاكم مدينة غرناطة، فرآهما في مجلسهما هذا من حيث لا يريانه، وكان قد رأى «فلورندا» قبل اليوم فأحبها، فاختلف إلى منزلها أيامًا يتحبَّب إليها ويدعوها إلى الزواج منه، فأبت أن تصغي إليه، وقالت له: إنني لا أتزوج ابن قاتل أبي. فانصرف بلوعةٍ لا تزال في نفسه حتى اليوم، فلما رآها جالسةً مجلسها هذا زعم في نفسه أنها ما أوصدت باب قلبها في وجهه إلا لأنها كانت قد فتحته من قبل لذلك الفتى العربي الجميل الذي يجالسها، فذهب إلى قصرها في اليوم الثاني ليفضي إليها بما وقع في نفسه، فأبت أن تقابله، فخرج غاضبًا يحدِّث نفسه بأفظع أنواع الانتقام.

وما هي إلا أيام قلائل حتى سيق الأمير سعيد بن يوسف بن أبي عبد الله، سليل بني الأحمر ملوك هذه البلاد بالأمس ومؤسسي مجدها وعظمتها، وبناة قلاعها وحصونها، وأصحاب قصورها وبساتينها، ذليلًا مهانًا إلى محكمة التفتيش متهمًا بمحاولة إغراء فتاةٍ مسيحية بترك دينها، وهي عندهم أفظع الجرائم وأهولها.

وقف الأمير أمام قضاة محكمة التفتيش، فسأله الرئيس عن تهمته، فأنكرها، فلم يحفل بإنكاره، وقال له: «لا يدل على براءتك إلا أمرٌ واحد، وهو أن تترك دينك وتأخذ

بدين المسيح!» فطار الغضب في دماغه، وصرخ صرخةً دوَّت بها أرجاء القاعة وقال: «في أي كتابٍ من كتبكم، وفي أي عهدٍ من عهود أنبيائكم ورسلكم أنَّ سفك الدم عقاب الذين لا يؤمنون بإيمانكم، ولا يدينون بدينكم؟

من أي عالم من عوالم الأرض أو السماء أتيتم بهذه العقول التي تصوِّر لكم أن الشعوب تُساق إلى الإيمان سوقًا، وأن العقائد تُسقى للناس كما يُسقى الماء والخمر؟

أين العهد الذي اتخذتموه على أنفسكم يوم وطئت أقدامكم هذه البلاد أن تتركونا أحرارًا في عقائدنا ومذاهبنا، وألا تؤذونا في عاطفةٍ من عواطف قلوبنا، ولا في شعيرةٍ من شعائر ديننا؟

أهذا الذي تصنعون اليوم، والذي صنعتم بالأمس، هو كل ما عندكم من الوفاء بالعهود والرعي للذمم؟!

نعم لكم أن تفعلوا ما تشاءون، فقد خلا لكم وجه البلاد وأصبحتم أصحاب القوة والسلطان فيها، وللسلطان عزةٌ لا تُبالي بعهدٍ ولا وفاء.

إن العهود التي تكون بين الأقوياء والضعفاء إنما هي سيفٌ قاطعٌ في يد الأولين، وغلٌّ ملتفٌّ على أعناق الآخرين، فلا أقال الله عثرة البلهاء ولا أقرَّ عيون الأغبياء!

أنتم أقوياء ونحن ضعفاء، فأنتم أصحاب الحق الأبلج والحجة القائمة، فاصنعوا ما شئتم فهذا حقكم الذي خوَّلتكم إياه قوتكم.

اسفكوا من دمائنا ما شئتم، واسلبوا من حقوقنا ما أردتم، واملكوا علينا مشاعرنا وعقولنا حتى لا ندين إلا بما تدينون، ولا نذهب إلا حيث تذهبون، فقد عجزنا عن أن نكون أقوياء، فلا بد أن ينالنا ما ينال الضعفاء!»

ثم حاول الاستمرار في حديثه فقاطعه الرئيس، وأمر أن يُساق إلى ساحة الموت التي هلك فيها من قبله عشرة آلاف من المسلمين قتلًا أو حرقًا، فسيق إليها واجتمع الناس حول مصرعه رجالًا ونساء، وما جرَّد الجلاد سيفه فوق رأسه حتى سمع الناس صرخة امرأةٍ بين الصفوف، فالتفتوا فلم يعرفوا مصدرها، وما هي إلا غمضةٌ وانتباهة أن سقط ذلك الرأس الذي ليس له مثيل.

يرى المارُّ اليوم بجانب مقبرة بني الأحمر في ظاهر غرناطة قبرًا جميلًا مزخرفًا، هو قطعة واحدة من الرخام الأزرق الصافي، قد نُحتت في سطحها حفرة جوفاء تمتلئ

بماء المطر، فيهوي إليها الطير في أيام الصيف الحار فيشرب منها، ونقشت على ضلع من أضلاعها هذه السطور:

هذا قبر آخر بني الأحمر

من صديقته الوفية بعهده حتى الموت

فلورندا فيليب

الهاوية

موضوعة

ما أكثر أيام الحياة وما أقلها؟!

لم أَعِش من تلك الأعوام الطوال التي عشتها في هذا العالم إلا عامًا واحدًا، مرَّ بي كما يمر النجم الدهري في سماء الدنيا ليلةً واحدة، ثم لا يراه الناس بعد ذلك.

قضيتُ الشطر الأول من حياتي أفتش عن صديقٍ ينظر إلى أصدقائه بعين غير العين التي ينظر بها التاجر إلى سلعته، والزارع إلى ماشيته، فأعوزني ذلك حتى عرفت «فلانًا» منذ ثمانية عشر عامًا، فعرفت امرأً ما شئت أن أرى خلَّة من خلال الخير والمعروف في ثياب رجلٍ إلا وجدتها فيه، ولا تخيلتُ صورةً من صور الكمال الإنساني في وجه إنسان إلا أضاءت لي في وجهه، فجلَّت مكانته عندي، ونزل من نفسي منزلةً لم ينزلها أحد من قبله، وصَفَتْ كأس الود بيني وبينه لا يكدرها علينا مكدرٌ.

حتى عرض إليَّ من حوادث الدهر ما أزعجني من مستقري، فهجرت القاهرة إلى مسقط رأسي، غير آسفٍ على شيء فيها إلا على فراق ذلك الصديق الكريم، فتراسلنا حقبةً من الزمن، ثم فَتَرَتْ عني كُتُبه ثم انقطعت، فحزنتُ لذلك حزنًا شديدًا، وذهبتْ بي الظنون في شأنه كل مذهب، إلا أنْ أرتاب في صدقه ووفائه، وكنت كلما هممت بالمسير إليه لتعرُّف حاله قعد بي عن ذلك همٌّ كان يقعدني عن كل شأنٍ حتى شأن نفسي، فلم أعد إلى القاهرة إلا بعد أعوامٍ، فكان أول همِّي يوم هبطتُ أرضها أن أراه، فذهبت إلى منزله في الساعة الأولى من الليل، فرأيت ما لا تزال حسرته متصلةً بقلبي حتى اليوم.

تركت هذا المنزل فردوسًا صغيرًا من فراديس الجنان تتراءى فيه السعادة في ألوانها المختلفة، وتترقرق وجوه ساكنيه بِشرًا وسرورًا، ثم زرته اليوم فخُيِّل إليَّ أنني أمام مقبرة موحشة ساكنة، لا يهتف فيها صوت، ولا يتراءى في جوانبها شبح، ولا يلمع في أرجائها مصباح، فظننت أني أخطأت المنزل الذي أريده، أو أنني بين يدي منزلٍ مهجورٍ، حتى سمعت بكاء طفلٍ صغيرٍ، ولمحت في بعض النوافذ نورًا ضعيفًا، فمشيتُ إلى الباب فطرقتُهُ، فلم يُجِبني أحد، فطرقته أخرى، فلمحتُ من خَصَاصِهِ نورًا مقبلًا، ثم لم يلبث أن انفرج لي عن وجه غلامٍ صغيرٍ في أَسْمَالٍ بالية يحمل في يده مصباحًا ضئيلًا، فتأملته على ضوء المصباح فرأيتُ في وجهه صورة أبيه، فعرفت أنه ذلك الطفل الجميل المدلل الذي كان بالأمس زهرة هذا المنزل وبدر سمائه، فسألته عن أبيه فأشار إليَّ بالدخول ومشى أمامي بمصباحه، حتى وصل بي إلى قاعة شعثاء مغبرة بالية المقاعد والأستار، ولولا نقوشٌ لاحت لي في بعض جدرانها كباقي الوشم في ظاهر اليد، ما عرفت أنها القاعة التي قضينا فيها ليالي السعادة والهناء اثني عشر هلالًا.

ثم جرى بيني وبين الغلام حديث قصيرٌ عرف فيه من أنا، وعرفت أن أباه لم يعد إلى المنزل حتى الساعة، وأنه عائدٌ عما قليل، ثم تركني ومضى، وما لبث إلا قليلًا حتى عاد يقول لي إن والدته تريد أن تحدثني حديثًا يتعلق بأبيه، فخفق قلبي خفقة الرعب والخوف، وأحسستُ بشرٍّ لا أعرف مأتاه.

ثم التفتُّ فإذا امرأة ملتفة برداء أسود واقفة على عتبة الباب، فحيَّتني فحيَّيتها، ثم قالت لي: «هل علمت ما صنع الدهر بفلانٍ من بعدك؟»

قلت: «لا، فهذا أول يوم هبطتُ فيه هذا البلد بعد ما فارقتُهُ سبعة أعوام.»

قالت: «ليتك لم تفارقه، فقد كنتَ عصمته التي يعتصم بها، وحِماه من غوائل الدهر وشروره، فما هو إلا أن فارقته حتى أحاطت به زمرةٌ من زمر الشيطان، وكان فتًى — كما تعلمه — غريرًا ساذجًا، فما زالت تغريه بالشر وتزين له منه ما يزين الشيطان للإنسان، حتى سقط فيه، فسقطنا جميعًا في هذا الشقاء الذي تراه!»

قلت: «وأي شر تريدين يا سيدتي؟ ومَن هم الذين أحاطوا به فأسقطوه؟»

قالت: «سأقص عليك كل شيءٍ، فاستمع لما أقول: ما زال الرجل بخير حتى اتصل بفلان رئيس ديوانه، وعَلِقتْ حباله بحباله، وأصبح من خاصته الذين لا يفارقون مجلسه حيث كان، ولا تزال نعالهم خافقةً وراءه في غدواته وروحاته، فاستحال من ذلك اليوم أمره، وتنكَّرت صورة أخلاقه، وأصبح منقطعًا عن أهله وأولاده، لا يراهم إلا الفينة بعد

الفينة، وعن منزله لا يزوره إلا في أخريات الليالي، ولقد اغتبطتُ في مبدأ الأمر بتلك الحظوة التي نالها عند ذلك الرئيس والمنزلة التي نالها من نفسه، ورجوت له من ورائها خيرًا كثيرًا؛ مغتفِرةً في سبيل ذلك ما كنت أشعر به من الوحشة والألم لانقطاعه عني، وإغفاله أمري وأمر أولاده، حتى عاد في ليلة من الليالي شاكيًا متألمًا يكابد غصصًا شديدة وآلامًا جسامًا، فدنوت منه، فشممتُ من فمه رائحة الخمر، فعلمتُ كل شيء.

علمت أن ذلك الرئيس العظيم هو قدوة مرءوسه؛ في الخير إن سلك طريق الخير، والشر إن سلك طريق الشر، قاد زوجي الفتى المسكين إلى شر الطريقين، وسلك به أسوأ السبيلين، وأنه ما كان يتخذه صديقًا كما زعم، بل نديمًا على الشراب، فتوسلت إليه بكل عزيزٍ عليه، وسكبتُ على يديه من الدموع كل ما تستطيع أن تسكبه عين، رجاء أن يعود إلى حياته الأولى التي كان يحياها سعيدًا بين أهله وأولاده، فما أجديت عليه شيئًا.

ثم علمت بعد ذلك أن اليد التي ساقته إلى الشراب قد ساقته إلى اللعب، فلم أعجب لذلك؛ لأني أعلم أن طريق الشر واحدة، فمن وقف على رأسها لا بد له أن ينحدر فيها حتى يصل إلى نهايتها، فأصبح ذلك الفتى النبيل الشريف — الذي كان يعفُّ بالأمس عن شرب الدواء إذا اشتمَّ فيه رائحة النبيذ، ويستحي أن يجلس في مجتمع فيه قوم شاربون — سكِّيرًا مقامرًا، مستهترًا لا يحتشم ولا يتلوَّم، ولا يتقي عارًا ولا مأثمًا.

وأصبح ذلك الأب الرحيم والزوج الكريم — الذي كان يضنُّ بأولاده أن يعلق بهم الذرُّ، وبزوجه أن يتجهَّم لها وجه السماء — أبًا قاسيًا، وزوجًا سليطًا، يضرب أولاده كلما دنوا منه، ويشتم زوجته وينتهرها كلما رآها، وأصبح ذلك الرجل الغيور الضنين بعرضه وشرفه لا يبالي أن يعود إلى المنزل في بعض الليالي في جمعٍ من عشرائه الأشرار، فيصعد بهم إلى الطبقة التي أنام فيها أنا وأولادي فيجلسون في بعض غرفها، ولا يزالون يشربون ويَقصِفون حتى يذهب بعقولهم الشراب، فيهتاجوا ويرقصوا ويملئوا الجو صراخًا وهتافًا، ثم يتعادوا بعضهم وراء بعض في الأبهاء والحجرات حتى يلجوا على باب غرفتي، وربما حدَّق بعضهم في وجهي أو حاول نزع خماري على مرأًى من زوجي ومسمعٍ فلا يقول شيئًا، ولا يستنكر أمرًا، فأفرُّ بين أيديهم من مكان إلى مكان، وربما فررتُ من المنزل جميعه وخرجتُ بلا إزار ولا خمارٍ، غير إزار الظلام وخماره، حتى أصل إلى بيت جارةٍ من جاراتي؛ فأقضي عندهم بقيةَ الليل.»

وهنا تغيَّرت نغمة صوتها، فأمسكت عن الحديث وأطرقت برأسها، فعلمتُ أنها تبكي، فبكيتُ بيني وبين نفسي لبكائها، ثم رفعتْ رأسها، وعادت إلى حديثها تقول: «وما

هي إلا أعوامٌ قلائل حتى أنفق جميع ما كان في يده من المال، فكان لا بد له أن يستدين، ففعل، فأثقله الدين، فرهن، فعجز عن الوفاء، فباع جميع ما يملك حتى هذا البيت الذي نسكنه، ولم يبقَ في يده غير راتبه الشهري الصغير، بل لم يبقَ في يده شيء حتى راتبه؛ لأنه لا يملكه إلا ساعة من نهار، ثم هو بعد ذلك مِلكٌ للدائنين، أو غنيمةٌ للمقامرين!

هذا ما صنعت يد الدهر به، أما ما صنعت بي وبأولادي، فقد مرَّ على آخر حليةٍ بعتها من حلاي عامٌ كامل، وها هي ذي حوانيت المرابين والمسترهنين ملأى بملابسي، وأدوات بيتي وأثاثه، ولولا رجل من ذوي قرباي رقيق الحال يعود عليَّ من حين إلى حين بالنزر القليل مما يستلُّه من أشداق عياله لهلكت وهلك أولادي جوعًا.

فلعلك تستطيع يا سيدي أن تكون عونًا لي على هذا الرجل المسكين، فتنقذه من شقائه وبلائه بما ترى له في ذلك الرأى الصالح، وأحسب أنك تقدر منه — للمنزلة التي تنزلها من نفسه — على ما عجز عنه الناس جميعًا، فإن فعلتَ أحسنتَ إليه وإلينا إحسانًا لا ننسى يدك فيه حتى الموت.»

ثم حيَّتني ومضت لسبيلها، فسألتُ الغلام عن الساعة التي أستطيع أن أرى أباه فيها في المنزل، فقال: إنك تراه في الصباح قبل ذهابه إلى الديوان. فانصرفتُ لشأني، وقد أضمرت بين جنبي لوعةً ما زالت تقيمني وتقعدني وتذود عن عيني سِنَةَ الكرى حتى انقضى الليل، وما كاد ينقضي.

ثم عدت في صباح اليوم الثاني؛ لأرى ذلك الصديق القديم الذي كنت بالأمس أسعد الناس به، ولا أعلم ما مصير أمري معه بعد ذلك، وفي نفسي من القلق والاضطراب ما يكون في نفس الذاهب إلى ميدان سباقٍ قد خاطر فيه بجميع ما يمتلك، فهو لا يعلم أيكون بعد ساعة أسعد الناس أم أشقاهم!

الآن عرفت أن الوجوه مرايا النفوس، تضيء بضيائها وتظلم بظلامها، فقد فارقتُ الرجل منذ سبع سنوات فأنستني الأيام صورته، ولم يبقَ في ذاكرتي منها إلا ذلك الضياء اللامع، ضياء الفضيلة والشرف الذي كان يتلألأ فيها تلألؤ نور الشمس في صفحتها، فلما رأيته الآن — ولم أَرَ أمام عيني تلك الغلالة البيضاء التي كنت أعرفها — خيِّل إليَّ أنني أرى صورةً غير الصورة الماضية، ورجلًا غير الذي كنت أعرفه من قبل.

لم أرَ أمامي ذلك الفتى الجميل الوضَّاح، الذي كان كل منبت شعرة في وجهه فمًا ضاحكًا تموج فيه ابتسامةٌ لامعة، بل رأيت مكانه رجلًا شقيًّا منكوبًا، قد لبس الهرم قبل أوانه، وأوفى على الستين قبل أن يسلخ الثلاثين، فاسترخى حاجباه، وثقلت أجفانه،

وجمدت نظراته، وتهدَّل عارضاه، وتجعَّد جبينه، واستشرف عاتقاه، وهوى رأسه بينهما هويَّه بين عاتقَي الأحدب، فكان أول ما قلت له: «لقد تغيَّر فيك كل شيءٍ يا صديقي، حتى صورتك!»

وكأنما ألمَّ بما في نفسي، وعرف أني قد علمت من أمره كل شيءٍ، فأطرق برأسه إطراق من يرى أن باطن الأرض خير له من ظهرها، ولم يقل شيئًا، فدنوت منه حتى وضعت يدي على عاتقه، وقلت له: «والله ما أدري ماذا أقول لك، أأعظك، وقد كنت واعظي بالأمس، ونجم هداي الذي أستنير به في ظلمات حياتي؟! أم أرشدك إلى ما أوجب الله عليك في نفسك وفي أهلك ولا أعرف شيئًا أنت تجهله، ولا تصل يدي إلى عِبرة تقصر يدك عن نيلها؟ أم أسترحمك لأطفالك الضعفاء وزوجتك البائسة المسكينة التي لا عضد لها في الحياة ولا معين سواك وأنت صاحب القلب الرحيم الذي طالما خفق بالبعداء، فأحرى أن يخفق رحمةً بالأقرباء؟!

إن هذه الحياة التي تحياها يا سيدي إنما يلجأ إليها الهُمَّل العاطلون الذين لا يصلحون لعملٍ من الأعمال، ليتواروا فيها عن الناس حياءً وخجلًا حتى يأتيهم الموت فينقذهم من عارهم وشقائهم، وما أنت بواحدٍ منهم.

إنك تمشي يا سيدي في طريق القبر، وما أنت بناقمٍ على الدنيا ولا بمتبرمٍ بها، فما رغبتك في الخروج منها خروج اليائس المنتحر؟! عذرتك لو أن ما ربحت في حياتك الثانية يقوم لك مقام ما خسرت من حياتك الأولى، ولكنك تعلم أنك كنت غنيًّا فأصبحت فقيرًا، وصحيحًا فأصبحت سقيمًا، وشريفًا فأصبحت وضيعًا، فإن كنت ترى بعد ذلك أنك سعيد، فقد خَلَتْ رقعةُ الأرض من الأشقياء!

إن كل ما يعنيك من حياتك هذه أن تطلب فيها الموت، فاطلبه في جرعة سم تشربها دفعة واحدة، فذلك خير لك من هذا الموت المتقطع الذي يكثر فيه عذابك وألمك، وتعظم فيه آثامك وجرائمك، وما يعاقبك الله على الأخرى بأكثر مما يعاقبك على الأولى.

حسبنا يا صديقي من الشقاء في هذه الحياة ما يأتينا به القدر، فلا نضم إليه شقاء جديدًا نجلبه بأنفسنا لأنفسنا! فهاتِ يدك وعاهدني على أن تكون لي منذ اليوم كما كنتَ لي بالأمس، فقد كنا سعداء قبل أن نفترق، ثم افترقنا فشقينا، وها نحن أولاء قد التقينا، فلْنَعِشْ في ظلال الفضيلة والشرف سعداء كما كنا.»

ثم مددت يدي إليه، فراعني أنه لم يحرك يده، فقلت له: «ما لك لا تمد يدك إليَّ؟»

فاستعبر باكيًا وقال: «لأنني لا أحب أن أكون كاذبًا ولا حانثًا.»

قلت: «وما يمنعك من الوفاء؟»

قال: «يمنعني منه أنني رجل شقيٌّ، لا حظَّ لي في سعادة السعداء.»

قلت: «قد استطعت أن تكون شقيًّا، فلِمَ لا تستطيع أن تكون سعيدًا؟»

قال: «لأن السعادة سماء والشقاء أرض، والنزول إلى الأرض أسهل من الصعود إلى السماء، وقد زلَّت قدمي عن حافة الهوة فلا قدرة لي على الاستمساك حتى أبلغ قرارتها، وشربتُ أول جرعة من جرعات الحياة المريرة، فلا بد لي أن أشربها حتى ثمالتها، ولا شيء من الأشياء يستطيع أن يقف في سبيلي إلا شيء واحد فقط، هو ألا أكون قد شربت الكأس الأول قبل اليوم، وما دمت قد فعلت فلا حيلة لي فيما قضى الله.»

قلت: «ليس بينك وبين النزوع إلا عزمة صادقة تعزمها فإذا أنت من الناجين.»

قال: «إن العزيمة أثر من آثار الإرادة، وقد أصبحت رجلًا مغلوبًا على أمري، لا إرادة لي ولا اختيار، فدعني يا صديقي والقضاء يصنع بي ما يشاء، وابكِ صديقك القديم منذ اليوم، إن كنت لا ترى بأسًا في البكاء على الساقطين المذنبين!»

ثم انفجر باكيًا بصوتٍ عالٍ وتركني مكاني دون أن يحييني بكلمة، وخرج هائمًا على وجهه لا أعلم أين ذهب، فانصرفتُ لشأني وبين جنبي من الهم والكمد ما الله به عليم.

لم يستطع رئيس الديوان أن يحمل نديمه بالأمس زمنًا طويلًا، فأقصاه عن مجلسه استقلالًا له، ثم عزله عن وظيفته استنكارًا لعمله، ولم تذرف عينه دمعة واحدة على منظر صريعه الساقط بين يديه، ولم يستطع مالك البيت الجديد أن يهمل فيه المالك القديم أكثر من بضعة أشهرٍ ثم طرده منه، فلجأ هو وزوجته وولداه إلى غرفة حقيرة في بيت قديمٍ في زقاق مهجور، فأصبحتُ لا أراه بعد ذلك إلا ذاهبًا إلى الحانةً أو عائدًا منها، فإن رأيته ذاهبًا زويت وجهي عنه، أو عائدًا دنوت منه فمسحت عن وجهه ما لصق به من التراب أو عن جبينه ما سال منه من الدم، ثم قدته إلى بيته.

وهكذا، ما زالت الأيام والأعوام تأخذ من جسم الرجل ومن عقله، حتى أصبح ظلًّا من الظلال المتنقلة، أو حلمًا من الأحلام السارية، يمشي في طريقه مشية الذاهل المشدوه، لا يكاد يشعر بشيءٍ مما حوله، ولا يتقي ما يعترض سبيله حتى يدانيه، ويقف حينًا بعد حين فيدور بعينيه حول نفسه، كأنما يفتش عن شيءٍ أضاعه وليس في يده شيء يضيع، أو يُقلب نظره في أثوابه، وما في أثوابه غير الرقاع والخِرَق! وينظر إلى كل وجهٍ يقابله نظرةً شزراء كأنما يستقبل عدوًّا بغيضًا وليس له عدو ولا صديق، وربما تعلَّق

بعض الصبيان بعاتقه فدفعهم عنه بيده دفعًا لينًا غير آبهٍ ولا محتفل، كما يدفع النائم المستغرق عن عاتقه يد موقظه، حتى إذا خلا جوفه من الخمر وهدأت سورتها في رأسه، انحدر إلى الحان فلا يزال يشرب ويتزايد حتى يعود إلى ما كان عليه.

ولم يَزَلْ هذا شأنه حتى حدثت منذ بضعة أشهرٍ الحادثة الآتية: عجزتْ تلك الزوجة المسكينة أن تجد سبيلًا إلى القوت، وأبكاها أن ترى ولدها وابنتها باكيَيْن بين يديها، تنطق دموعهما بما يصمت عنه لسانهما، فلم تَرَ لها بدًّا من أن تَركَب تلك السبيل التي يركبها كل مضطرٍّ عديم، فأرسلتهما خادمَيْن في بعض البيوت يقتاتان فيها ويُقيتانها، فكانت لا تراهما إلا قليلًا، ولا ترى زوجها إلا في الليلة التي تغفل فيها عنه عيون الشرطة، وقلما تغفل عنه، فأصبحت وحيدةً في غرفتها لا مؤنس لها ولا معين إلا جارة عجوز، تختلف إليها من حين، فإذا فارقتها جارتها وخلت بنفسها، ذكرت تلك الأيام السعيدة التي كانت تتقلب فيها في أعطاف العيش الناعم والنعمة السابغة، بين زوج كريمٍ وأولادٍ كالكواكب الزُّهْر حُسنًا وبهاءً، ثم تذكر كيف أصبح السيد مَسُودًا، والمخدوم خادمًا، والعزيز الكريم ذليلًا مهينًا، وكيف انتثر ذلك العقد اللؤلؤي المنظوم الذي كان حليةً بديعة في جيد الدهر، ثم استحال بعد انتثاره إلى حصياتٍ منبوذات على سطح الغبراء، تطؤها النعال وتدوسها الحوافر والأقدام، فتبكي بكاء الواله في إثر قوم ظاعنين حتى تتلف نفسها أو تكاد!

على أنها ما أضمرت قط في قلبها حقدًا لذلك الإنسان الذي كان سببًا في شقائها وشقاء ولديها، ولا حدَّثتها نفسها يومًا من الأيام بمغاضبته أو هجرانه؛ لأنها امرأةٌ شريفه، والمرأة الشريفة لا تغدر بزوجها المنكوب، بل كانت تنظر إليه نظرة الأم الحنون إلى طفلها الصغير، فترحمه وتعطف عليه، وتسهر بجانبه إن كان مريضًا، وتأسو جراحه إن عاد جريحًا، وربما طرده الخَمَّار في بعض لياليه من حانِهِ حينما لا يجد معه ثمن الشراب، فيعود إلى بيته ثائرًا مهتاجًا يطلب الشراب طلبًا شديدًا، فلا تجد بدًّا من أن تعطيه نفقة طعامها، أو تبتاع له من الخمر ما يسكن به نفسه، رحمةً به وإبقاءً على تلك البقية الباقية من عقله.

وكأن الدهر لم يكفِهِ ما وضع على عاتقها من الأثقال، حتى أضاف إليها ثقلًا جديدًا، فقد شعرت في يوم من أيامها بنسمة تتحرك في أحشائها، فعلمت أنها حاملٌ، وأنها ستأتي إلى دار الشقاء بشقيٍّ جديد، فهتفت صارخة: «رحمتك اللهم، فقد امتلأت الكأس حتى ما تسع قطرة واحدة!» وما زالت تكابد من آلام الحمل ما يجب أن تكابده

امرأة مريضة منكوبة، حتى جاءت ساعة وضعها، فلم يحضرها أحد إلا جارتها العجوز، فأعانها الله على أمرها فوضعت، ثم مرضت بعد ذلك بحمى النفاس مرضًا شديدًا، فلم تجد طبيبًا يتصدق عليها بعلاجها؛ لأن البلد الذي لا يستحي أطباؤه أن يطالبوا أهل المريض بعد موته بأجرة علاجهم الذي قتله، لا يمكن أن يوجد فيها طبيبٌ محسن أو متصدقٌ، فما زال الموت يدنو منها رويدًا رويدًا حتى أدركتها رحمة الله، فوافاها أجلها في ساعة لا يوجد فيها بجانبها غير طفلتها الصغيرة عالقة بثديها.

في هذه الساعة دخل الرجل ثائرًا مهتاجًا يطلب الشراب ويفتش عن زوجته لتأتي له منه بما يريد، فدار بعينيه في أنحاء الغرفة حتى رآها ممدة على حصيرها، ورأى ابنتها تبكي بجانبها، فظنها نائمة، فدنا منها ودفع الطفلة بعيدًا عنها، وأخذ يحركها تحريكًا شديدًا فلم يشعر بحركة، فرابه الأمر وأحس برعدة تتمشى في أعضائه حتى أصابت قلبه، فبدأ صوابه يعود إليه شيئًا فشيئًا، فأكبَّ عليها يحدق في وجهها تحديقًا شديدًا، ويزحف نحوها رويدًا رويدًا حتى رأى شبح الموت يحدق إليه من عينيها الشاخصتين الجامدتين، فتراجع خوفًا وذعرًا، فوطئ في تراجعه صدر ابنته، فأنَّتْ أَنَّةً مؤلمة لم تتحرك بعدها حركة واحدة، فصرخ صرخةً شديدة وقال: «وا شقاءاه! وا شقاءاه!»

وخرج هائمًا على وجهه يعدو في الطرق ويضرب رأسه بالعُمُد والجدران، ويدفع كل ما يجد في طريقه من إنسان أو حيوان ويصيح: «ابنتي! زوجتي! هلموا إليَّ! أدركوني!» حتى أعيا فسقط على الأرض، وأخذ يفحص التراب برجليه ويئن أنين الذبيح، والناس من حوله آسفون عليه، لا لأنهم يعرفونه، بل لأنهم قرءوا في وجهه آيات شقائه، فكانت تلك اللحظة القصيرة التي استفاق فيها من ذهوله الطويل سببًا في ضياع ما بقي من عقله.

وما هي إلا ساعة أو ساعتان حتى أصبح مقيدًا مغلولًا في قاعة من قاعات البيمارستان. فوا رحمتاه له ولزوجته الشهيدة ولطفلته الصريعة ولأولاده المشردين البؤساء!

الجزاء

مترجمة

جلستْ على ضفَّة البحيرة لتملأ جرَّتها، وكان الماء ساكنًا هادئًا كأنما قد امتدت فوق سطحه طبقةٌ لامعة من الجليد؛ فعزَّ عليها أن تكسر بيدها هذه المرآة الناعمة الصقيلة، ولا شيء أحب إلى المرأة من المرآة، فظلَّت تقلِّب نظرها فيها، فلمحت في صفحتها وجهًا أبيض رائقًا ينظر إليها نظرًا عذبًا فاترًا، فابتسمت له، فابتسم لها، فعلمت أنه الوجه الذي افتتن به خطيبها القروي الجميل.

أَنِست بهذا المنظر ساعة، ثم راعها أن رأت بجانب خيالها في الماء خيالًا آخر، فتبيَّنته فإذا به خيال رجلٍ، فذعرت، ولكنها لم تلتفت وراءها ومدَّت يدها إلى الماء فملأت جرَّتها، ثم نهضت لتحملها، فتقدَّم إليها ذلك الواقف بجانبها وقال لها: «هل تأذنين لي يا سيدتي أن أُعينك على حمل جرَّتك؟» فالتفتت فإذا فتى حضري غريب حسن الصورة والبزة لا تعرفه، ولا تعرف أن هذه الأرض مما تنبت مثله، فرابها أمره، واتَّقد وجهها حياءً وخجلًا، ولم تقل شيئًا، واستقلَّت جرَّتها ومضت في سبيلها.

نشأت «سوزان» وابن عمها «جلبرت» في بيتٍ واحد كما تنشأ الزهرتان المتعانقتان في مغرسٍ واحد، فرضعت معه وليدةً، ولعبت معه طفلةً، وأحبَّته فتاةً، ومرَّت بهما في جميع تلك الأدوار سعادة لم يستمداها من القصور والبساتين والأرائك والأسرَّة، والجياد والمركبات، والأكواب والدِّنَان، والمزاهر والعيدان، والذهب اللامع، واللؤلؤ الساطع، والأثواب المطرزة، والغلائل المرصعة؛ لأنهما كانا قرويين فقيرين.

بل استمداها من مطلع الشمس ومغربها، وإقبال الليل وإدباره، وتلألؤ السماء بنجومها الزاهرة، والأرض بأعشابها الناضرة، ومن الوقفات الطوال فوق الصخور البارزة على ضفاف البحيرة الهادئة، والجلسات الحلوة الجميلة، على الأعشاب الناعمة، تحت ظلال الأشجار الوارفة، ومن سماع أناشيد الحياة، وأغاني الرعاة، وضوضاء السائمة في غدوها ورواحها، وبكاء النواعير في مسائها وصباحها، ومن الحب الطاهر الشريف الذي يشرق على القلوب الحزينة فيسعدها، والأفئدة المظلمة فينيرها، والأجنحة الكسيرة فيريشها، والذي هو العزاء الوحيد عن كل فائت في هذه الحياة، والسلوى عن كل مفقود، ولم يَزَل هذا شأنها حتى كان يوم البحيرة.

لا تعرف المرأة لها وجودًا إلا في عيون الرجال وقلوبهم، فلو خلت رقعة الأرض من وجوه الناظرين، أو أقفرت حنايا الضلوع من خوافق القلوب، لأصبح الوجود والعدم في نظرها سواء، ولو أن وراءها ألف عين تنظر إليها ثم لمحت في كوكب من كواكب السماء نظرة حب، أو سمعت في زاوية من زوايا الأرض أَنَّة وجدٍ، لأعجبها ذلك الغرام الجديد، وملأ قلبها غبطةً وسرورًا.

فقد عادت الفتاة إلى بيتها طيبة النفس، قريرة العين، مزهوة مختالة، لا لأن حبًّا جديدًا حلَّ في قلبها محل الحب القديم، ولا لأن نفسها حدَّثتها أن تصل حياتها بحياة أحدٍ غير خطيبها، بل لأنها وجدت في طريقها برهانًا جديدًا على جمالها فأعجبها، فكانت لا تزال تختلف بعد ذلك بجرَّتها إلى البحيرة غير خائفة ولا مرتابة، فترى ذلك السيد الحضري في غدوها أو رواحها يحييها أو يبتسم لها، أو يسائلها عن طريق، أو يستسقيها شربة ماءٍ، أو يقدم إليها زهرة جميلة، أو يلقي في أذنها كلمةً عذبة، حتى استطاع في يوم من الأيام أن يجلس بجانبها لحظة قصيرة في ظل صخرة منفردة، فكانت هذه اللحظة آخر عهدها بحياتها القديمة، وأول عهدها بحياتها الجديدة!

هبط «المركيز جوستاف روستان» هذه الأرض منذ أيامٍ لتفقُّد مزارعه فيها، وكان لا يزال يختلف إليها من حين إلى حين، فيقضي في قصره الجميل الذي بناه فيها على بعد ساعتين من البحيرة بضعة أيامٍ، ثم يعود إلى بلدته «نيس»، حتى رأى هذه المرة هذه الفتاة في بعض غدواته إلى ضفاف البحيرة فاستلهاه حسنها، وما زال يفيض على قلبها من حبه، وعلى أذنها من سحره، وعلى جيدها ومعصميها من لآلئه وجواهره، ويصور لها جمال الحياة الحضرية في أجمل صورها وأبهاها، ويمنِّيها الأماني الكبار في حاضرها ومستقبلها، حتى أذعنت واستقادت وخضعت للتي تخضع لها كل أنثي نامت عنها عين راعيها، وأسلمها حظها إلى أنياب الذئاب.

استيقظ الفتى «جلبرت» في الساعة التي يستيقظ فيها من صباح كل يومٍ، فعمد إلى بقرته فحلَّ عقالها، ثم هتف باسم «سوزان» يدعوها إلى الذهاب معه إلى المرعى فلم تُجِبه، فصعد إلى غرفتها في سطح المنزل ليوقظها فلم يجدها، فسأل عنها أمه فلم تعلم من أمرها أكثر مما يعلم، فظن أنها خرجت لقضاء بعض الشئون، ثم تعود، فلبث ينتظرها وقتًا طويلًا فلم تعد.

فرابه الأمر، وأعاد البقرة إلى معتلفها، وخرج يفتش عنها في كل مكان، ويُسائل عنها الناس جميعًا غاديهم ورائحهم، فلم يجد من يدلُّه عليها حتى أظلَّه الليل، فعاد حزينًا مكتئبًا لا يرى أن أحدًا على وجه الأرض أعظم لوعةً منه ولا أشقى، فرأى أمه قابعةً في كسر البيت مطرقةً برأسها تفلي التراب بعودٍ في يدها، فدنا منها، فرفعت رأسها إليه وقالت له: «أين كنت يا جلبرت؟»

قال: «فتشت عن سوزان في كل مكان فلم أجدها.»

فألقت عليه نظرة مملوءة حزنًا ودموعًا، وقالت: «خير لك يا بني ألا تنتظرها بعد اليوم.»

فانتفض انتفاضةً شديدة، وقال: «لماذا؟»

قالت: «قد دخلت عليَّ الساعة جارتنا فلانة، فحدَّثتني أنها ما زالت تراها منذ ليالٍ تختلف إلى البحيرة للاجتماع على ضفافها بفتًى حضري غريب عن هذه المَدَرَة، أحسبه المركيز «جوستاف روستان» صاحب هذه المزارع التي تلينا والقصر الأحمر الذي يليها، وقالت لي إنها رأتها ليلة أمس بعد منتصف الليل راكبة وراءه على فرسٍ أشهب يعدو بها في طريق القصر الأحمر، ولا بد أنها فرَّت معه.»

فصرخ «جلبرت» صرخةً جادت لها نفسه أو كادت، وخرَّ في مكانه صعقًا، فلم تَزَل أمه جاثيةً بجانبه الليل كله، تبكي عليه مرة، وتمسح جبينه بالماء أخرى، حتى استفاق في مطلع الفجر، فنظر حوله نظرة حائرة، فرأى أمه مكبةً على وجهها تبكي وتنتحب، فذكر كل ذلك فأطرق هنيهةً، ثم رفع رأسه ووضع يده على عاتقها، وسألها: «ما بكاؤك يا أماه؟»

قالت: «أبكي عليك يا بني وعليها.»

قال: «إن كنتِ باكية فابكِ على غيري، أما أنا فلست بحزين ولا باكٍ، فقد كنتُ أحببت هذه الفتاة لأنها كانت تحبني، وقد استحال قلبي الآن إلى صخرة عاتية لا ينال منها شيء، فلا رجعة لى إليها بعد اليوم!» ثم مسح عن خده آخر دمعة كانت تنحدر فيه، وقام إلى بقرته فأخذ بزمامها ومضى بها إلى المزرعة وحده.

لقد كَذَبَتِ المسكين نفسُهُ، فإنه ما سلا سوزان ولا هدأت عن قلبه لوعة حبها، ولكنها الغضبة التي يغضها المحب المهجور، تخيَّل إليه أنه قد نفض يده من الحب أشد ما يكون به عالقًا.

فإنه ما وصل إلى المزرعة وأرسل سائمته في مرعاها، حتى رأى كوكب الشمس يتناهض من مطلعة قليلًا قليلًا، ويرسل أشعته الياقوتية الحمراء على هذه الكائنات، فتنير ظلامها، وتجلو صفحتها، وتترقرق ما بين خضرائها وغبرائها، فأعجبه منظر هذه الطبيعة المتلألئة بين يدي هذا الكوكب المنير، ودار بنظره في الفضاء من مشرقه إلى مغربه، فلمح في الأفق الغربي بارقًا يخطف البصر بلألائه، فخُيِّل إليه أن المغرب قد أَطْلَعَ في أفقه شمسًا كتلك التي أطلعها المشرق حتى تبيَّنه، فإذا هو لوح كبير من الزجاج أصفر مستدير تعابثه أشعة الشمس فيما تعابث من الكائنات فيلتمع التماعًا شديدًا، فاسترد بصره إليه سريعًا ووضع يده على يُسْرَى أضالعه، كأنما يحول بين قلبه وبين الفرار؛ لأنه علم أن ذلك اللوح الزجاجي الأصفر إنما يلوح في برجٍ من أبراج القصر الأحمر.

هنا علم أن نفسه قد كذبته فيما حدَّثته، وأن تلك البارقة التي كانت تضيء ما بين جنبيه من الحب قد استحالت إلى جذوة نار مشتعلة تقضم فؤاده قضمًا، وتمشي في نفسه مشي الموت في الحياة، فأطلق لعبرته سبيلها، وأنشأ يئنُّ أنينًا محزنًا تردده الرياح في جوها، والأمواج في بحرها، والأعشاب في مغارسها، والسائمة في مرابضها، حتى سمع أصوات الرعاة وضوضاء السائمة، فكفكف عبراته، وأسلم رأسه إلى ركبتيه وذهب مع همومه وأحزانه إلى حيث شاء الله أن تذهب.

هكذا لم ينتفع المسكين بنفسه بعد اليوم، فقد ذهب من الحزن إلى أبعد مذاهبه، حتى نال منه ما لم يَنَل كَرُّ الغداة ومَرُّ العشي، فأصبح من يراه في طريقه يرى رجلًا بائسًا منكوبًا مشرَّد العقل، مشترَك اللُّبِّ، مذهوبًا به كل مذهب، يهيم على وجهه آناء الليل وأطراف النهار بين الغابات والحَرَجات، وفوق ضفاف الأنهار وتحت مشارف الجبال، يأنس بالوحش أنس العشير بعشيره، ويفر من الناس إن دانوا منه فرار الإنسان من الوحش، ويَرِد المناهل مع الظباء واليعافير، ثم يصدر إذا صدرت معها.

وربما ترامى به السير أحيانًا إلى أفنية القصر الأحمر من حيث لا يشعر، فإذا رأى أبراجه بين يديه ذعر ذعرًا شديدًا وصاح صيحة عظيمة، وانكفأ راجعًا إلى قريته لا يلوي على شيء، وكثيرًا ما قضت أمه النهار كله حاملةً على يدها الطعام تفتش عنه في كل

مكان، حتى تراه ملقًى بين الأحجار، على ضفة نهر، أو في سفح جبل، فتضع الطعام بين يديه من حيث لا يشعر بمكانها، ثم ترفع يدها إلى السماء ضارعة متخشعة، تسأل الله بدموعها وزفراتها أن يرد إليها وحيدها، ثم تعود أدراجها!

مضى الليل إلا أقله، وسوزان جالسة إلى نافذة قصرها المشرفة على النهر، تلتفت إلى سرير ابنتها مرةً وتقلب وجهها في السماء أخرى، وكان القمر في ليلة تِمِّه، فظلت تناجيه وتقول: «أيها القمر الساري في كبد السماء، هأنذا أراك في ليلة تِمِّك وحدي للمرة الرابعة والعشرين، فهل يعود إليَّ خطيبي «جوستاف» فينظر إليك معي كما كان يفعل من قبل؟

لقد كنتَ لي أيها الكوكب المنير نعم المعين في لياليَّ الموحشة على همومي وأحزاني، فهل تستطيع أن تحدثني عن «جوستاف» أين مكانه ومتى يعود؟ وهل نلتقي قريبًا فتتم بذلك يدك عندي؟

حدِّثني عنه … هل يذكرني كما أذكره؟! وهل يحفظ عهدي كما أحفظ عهده؟! وهل يجلس إليك حينًا فيُسائلك عني كما أسألك عنه؟ فإن فعل فقل له إن ابنته جميلة جدًّا جمال الابتسامة الحائرة في فم الحسناء، وبيضاء بياض القطرة الصافية في الزنبقة الناصعة تحت الأشعة الساطعة. وقل له إنها لا تهتف باسم غير اسمه، ولا تبتسم لرسمٍ غير رسمه، وإنه إن رآها أغنته رؤيتها عن المرآة المجلوة؛ لأنه يرى صورته في وجهها كما تتشابه الدميتان المصبوبتان في قالب واحد.»

ولم تَزَل تناجي القمر بمثل هذا النجاء حتى رأته ينحدر إلى مغربه، فودَّعته وداعًا جميلًا، وقالت: «إلى الغد يا صديقي العزيز.» ثم قامت إلى سرير ابنتها فحنت عليها برفق وقبَّلتها في جبينها قبلة السماء، وذهبت إلى مضجعها، وما هو إلا أن عبثت بجفنها السِّنَة الأولى من النوم، حتى أسلمتها أحلامها إلى أمانيها وآمالها، فرأت كأن «جوستاف» قد عاد من سفره، فاستقبلته هي وابنتها على باب القصر، فنزل من مركبته وضمهما معًا إلى صدره ضمًّا شديدًا، وظل يقبِّلهما ويبكي فرحًا وسرورًا.

فإنها لمستغرقة في حلمها هذا؛ إذ شعرت بيدٍ تحركها فانتبهت، فإذا صدر النهار قد علا، وإذا خادمتها واقفة على رأسها ضاحكة متطلقة، تقول لها: «بشراك يا سيدتي، فقد حضر سيدي!»

فاستُطيرت فرحًا وسرورًا، وقالت: «أحمدك اللهم، فقد صدقت أحلامي.» وأسرعت إلى غرفة ملابسها فبدَّلت أثوابها، ثم دخلت عليه في غرفته باسمةً متهللة تحمل ابنتها على يدها، فرأته واقفًا في وسط الغرفة متكئًا على كرسي بين يديه، فهرعت إليه، ولكنها

ما دنت منه، حتى تراجعت حائرةً مدهوشةً؛ لأنها رأت أمامها رجلًا لا تعرفه ولا عهد لها به من قبل، لا بل هو بعينه، ولكنها رأت وجهًا صامتًا متحجرًا لا تلمع فيه بارقة ابتسامٍ، ولا تجري فيه نظرة بشاشةٍ، فأنكرته، إلا أنها تماسكت قليلًا ومدت إليه يدها تحييه، فمد إليها يده بتثاقلٍ وفتور، كأنما ينقلها من مكانها نقلًا، ولم يُلقِ على وجه الطفلة — وكانت تبتسم إليه وتمد نحوه ذراعيها — نظرةً واحدة، وكانت أول كلمة قالها لها: «أباقية أنت في القصر حتى اليوم؟!»

فازدادت دهشةً وحيرة، ولم تفهم ماذا يريد، وقالت له: «وأين كنت تريد أن تراني يا سيدي؟»

قال: «في هذا القصر كما تركتك، ولكني أظن أنك لا تستطيعين البقاء فيه بعد اليوم.»

قالت: «لماذا؟»

قال: «لأن زوجتي قادمةٌ إليه اليوم، وربما كانت لا تحب أن ترى فيه من يزعجه وجودها.»

هنالك شعرت أن جميع ما كان ينبعث في عروقها من الدم قد تراجع كله دفعه واحدة إلى قلبها، فأصبح وحده الواجب الخفَّاق من دون أعضائها وأوصالها جميعًا، ولكن المصيبة إذا عظمت جلَّت عن البكاء والأنين، فلم تَصِح ولم تضطرب، بل نظرت إليه نظرةً طويلة هادئة، ثم التفتت إلى ابنتها وقالت له: «وما ترى في ابنتك هذه؟»

قال: «ليس لي ابنة أيتها السيدة، ولا ولد لي؛ لأني لم أتزوج إلا منذ ثلاثة أيام! فخذي ابنتك معك وعيشي معها حيث تشائين، وقد تركتُ لك هذا الكيس على المنضدة، فخذيه واستعيني به على عيشك.» وتركها ومضي.

لم تُلقِ على المنضدة نظرةً واحدة، ومشت تتحامل على نفسها حتى وصلت إلى غرفتها، وهنالك انفجرت باكيةً، وقالت: «وا سوأتاه! إنه يعطيني ثمن عِرضي!» وسقطت مغشيًّا عليها.

فلم تستفق حتى أظلها الليل، ففتحت عينيها فإذا ابنتها تبكي بين ذراعي الخادمة، وإذا الخادمة تبكي لبكائها، فضمتها إلى صدرها ساعة، ثم قامت إلى غرفة ملابسها وأخذت تفتش عن أثوابها القروية التي دخلت بها هذا القصر منذ ثلاثة أعوام، وكانت تخفيها عن أعين الناس حياء وخجلًا، فخلعت أثوابها ولبسته، ولم تُبقِ في معصميها ولا في جيدها لؤلؤةً ولا ماسةً إلا ألقت بها تحت قدميها، واحتملت طفلتها وخرجت تحت ستار الليل تترنح في مشيتها كأنما تمشي على رملة مَيْثاء.

وما جاوزتْ عتبة الباب ووصلتْ إلى الموضع الذي كانت واقفةً فيه في حلمها هي وابنتها منذ ساعات تنتظر خطيبها حتى لمحت على البعد مركبة فخمةً مقبلةً على القصر تحمل المركيز وامرأةً بجانبه! فأغمضت عينيها وتسللت تحت جدار القصر، ومضت في سبيلها.

لا يعلم إلا الله ما كانت تحمل هذه الفتاة المسكينة بين جنبيها في تلك الساعة من هموم وأحزان، فقد خرجت مطرودةً من القصر التي كانت تظن منذ ساعات أنها صاحبته، وتولى طردها من كانت تزعم في نفسها أنها أحب الناس إليه، وآثرهم عنده، واستحالت في ساعة واحدة من فتاة شريفة ذات خطيب شريف إلى امرأة عاهرة ذات ولد مريب، وأصبح مستحيلًا عليها أن تعود إلى بيتها القديم بعارها، فترى وجه ذينك الشخصين اللذين أحسنا إليها كثيرًا وأحبَّاها حبًّا جمًّا فأساءت إليهما وغدرت بهما، فقد سُدَّت دونها السُّبل، وأظلم ما بينها وبين العالم بأجمعه، فما من رحمة لها في الأرض ولا في السماء!

ذلك ما كانت تحدِّث نفسها به، وهي سائرة تحت سوار القصر سير الذاهل المشدوه، لا تعرف لها مذهبًا ولا مضطربًا، حتى رأت رأس ابنتها يميل به الكرى، فمشت إلى ربوة عالية على ضفة النهر الجاري على مقربة من القصر، فأضجعتها فوق عشبها، وأسبلت عليها رداءها، وجلست بجانبها تفكر في مصيرها.

فإنها لجالسةٌ مجلسها هذا — وقد سكن الليل وسكن كل شيء فيه إلا ضوء القمر المنبعث في أجواز الفضاء، ونسمات الهواء المترقرقة على صفحات الماء — إذ شعرت كأنها تسمع بالقرب منها هاتفًا يهتف باسمها بصوت ضعيف، فالتفتت حيث سمعت الصوت، فإذا شبحٌ أسود ممتدٌّ بين صخرتين على ضفة النهر، كأنه إنسانٌ نائم، فارتاعت وفزعت، ثم سمعت الصوت يتكرر بنغمة واحدة، فأهمَّها الأمر، ونهضت من مكانها وأخذت تدنو من الشبح رويدًا رويدًا حتى دانته، فإذا هو إنسانٌ في زي المساكين مستلقٍ على ظهره شاخص ببصره إلى جدار القصر، فذهبت بنظرها حيث يذهب، فإذا عينه عالقة بنافذة غرفتها التي كانت تجلس إليها كل ليلة، عجبت لذلك كل العجب، وخفق قلبها خفقًا متداركًا، ورأته يضم إلى صدره هَنَةً بيضاء أشبه بالرقعة ضمًّا شديدًا، فاكبَّت عليه لتتبيَّنه وترى ما يضم إلى صدره، فإذا الرقعة رسمها، وإذا هو «جلبرت» يجود بنفسه، ويردد بصوت خافت متغلغل كأنه أصوات المعذبين في أعماق القبور: «الوداع يا سوزان! الوداع يا سوزان!»

ففهمت كل شيءٍ، فصرخت صرخةً عظمى، دوَّى بها الفضاء وقالت: «آه! لقد قتلتك يابن عمي!»

ثم سقطت على يده تقبِّلها وتبللها بدموعها، وتقول: «هأنذا يا «جلبرت» جاثية تحت قدميك، فارحمني واغفر لي ذنبي، فقد أصبحت امرأةً بائسة شقية، ليس على وجه الأرض من هو أحق بالرحمة مني.»

وكأنما أحس بنغمة صوتها فارتعد قليلًا، ثم مال بنظره نحوها حتى رآها، فسقطت من جفنه دمعة حارَّةٌ على يدها كانت آخر عهده بالحياة، وقضى.

وَلَمَّا دَنَا مِنِّي السِّيَاق تَعَرَّضَتْ إلَيَّ ودُونِي مِنْ تَعَرُّضِهَا شُغْلُ
أَتَتْ وحِياضُ الموتِ بَيْنِي وَبَيْنها وَجَادَتْ بِوَصْلٍ حِينَ لا يَنْفَعُ الوَصْلُ

جَثَتْ سوزان بجانب جثَّة جلبرت ساعة، قضت فيها ما يجب عليها لابن عمها وخطيبها وعشيقها الذي أحبَّها حبًّا لم يحبه أحدٌ من قبله أحدًا حتى مات حسرةً عليها، ثم استفاقت فذكرت ابنتها، وأنها تركتها على تلك الربوة نائمةً وحدها، فعادت إليها مسرعة، وقد قررت في نفسها أمرًا.

«لا أعرف أحدًا من الناس أوصيه بك يا بنيَّتي؛ لأن أباك أنكرك، ولأن الرجل الوحيد الذي كان يحبني في هذا العالم ذهب لسبيله، ولكني أعلم أن لهذا الكون إلهًا رحيمًا يعلم دخائل القلوب وسرائر النفوس، ويرى لوعة الحزن في أفئدة المحزونين، ولاعِج الشقاء بين جوانح الأشقياء، فأنا أَكِلُ أمرك إليه وأتركك بين يديه، فهو أرحم بك من جميع الرحماء.

لا أستطيع أن أعيش لك يا بنيَّتي، فإن أحدًا من الناس لا يغتفر لي الذنب الذي أذنبته، حتى الذي أغراني به وشاركني فيه، فأنا ذاهبةٌ إلى ذلك العالم العلوي المملوء عدلًا ورحمة، لعلِّي أجد فيه من يغفر لي ذنبي إن كنتُ بريئة، ويرحمني إن كنت مذنبة.

لا أحب أن تكون حياتي يا بنية شؤمًا على حياتك، ولا أن يأخذك الناس بذنبي كلما رأوك بجانبي، فأنا أتركك وحدك في هذا المكان لعلَّ راحمًا من الناس يمرُّ بكِ فيعطف عليك ويضمك إليه من حيث لا يعلم شيئًا من أمرك، فتعيشين في بيته سعيدةً هانئة، لا تعرفين أباك فيخجلك مرآه، ولا أمك فتؤلمك ذكراها.

اللهم إن كنت تعلم أن هذه الطفلة ضعيفة عاجزة تحتاج إلى من يرحمها ويكفل أمرها، وأنني قد أصبحت عاجزةً عن البقاء بجانبها أرعاها وأحنو عليها، وأنها بريئة

طاهرة لا يد لها في الذي أذنبه أبواها، فارحمها وأسبل عليها ستر معروفك وإحسانك، وهيئ لها صدرًا حنونًا، ومهدًا لينًا، وعيشًا رغيدًا.»

ثم بدأت تسرو ثيابها عن جسمها، وتغطي بها جسم ابنتها وقايةً لها من برد الليل، حتى لم يبقَ على جسدها إلا قميصٌ واحد، تركته ليكون سترًا لعورتها عند انتشال جثتها، ثم حنت على الطفلة برفقٍ، فلثمتها في جبينها لثمةً أودعتها كل ما في صدرها من حبٍّ ورحمة ورفقٍ وحنان، ثم هتفت قائلة: «الوداع يا «ماري»، سنلتقي عما قليلٍ يا «جلبرت»، المغفرة يا «كاترين».» وألقت بنفسها في الماء.

قضى المركيز الليلة الأولى من ليالي شهر العسل مع عروسه في شرفة القصر يسمران ويتناجيان، ويذهبان بنظرهما حيث تذهب خضرة الأرض وتمتد زرقة السماء وتطرد مياه النهر، ويتقلبان بين سعادةٍ حاضرة وأخرى مرجوَّة، ويرشفان من كل كأس من تلك الكئوس رشفة تكثُّرًا بما عندهما منها، حتى ثملا واستغرقا وأصبحا لا يشعران بشيء مما حولهما، فلم يستفيقا حتى سمعا دوي الريح في أبراج القصر، وفي ذوائب الأشجار، فعلما أنها الزوبعة، فنهضا من مكانهما ليذهبا إلى مضجعهما.

فإنهما لواقفان موقفهما هذا إذ لمحت المركيزة في وجه المركيز دهشةً واضطرابًا، ورأته يلتفت التفاتًا شديدًا كأنما يتسمع لصوتٍ غريب، فسألته ما باله، فلم يُجِبها، وأطلَّ من الشرفة على النهر، فرأى كما رأت هي على نور القمر، طفلةً واقفةً على الضفة تصيح وتعول، وتشير بيدها نحو الماء، وتقول: «أماه! أماه!» فنظرا حيث تشير، فإذا امرأةٌ عاريةٌ إلا قليلًا تتخبط في لجج الماء تخبُّط الغرقى.

فترك المركيز مكانه ونزل يعدو إلى النهر، وهو يقول: «وا لهفتاه إن كانت هي!» وصاح بخدمه أن يتبعوه ففعلوا.

حتى بلغ موقف الطفلة، فعرف أنها ابنته، وأن الغريقة سوزان، فأظلم الفضاء في عينيه، وأشار إلى أحد خدمه أن يعود بالطفلة إلى القصر، وأمر الباقين أن يسبحوا وراء الغريقة، ثم سقط في مكانه واهنًا متهالكًا، وكان قد اجتمع على الضفة خلقٌ كثير من الفلاحين رجالًا ونساء، فسبح بعضهم وراء السابحين، ووقف الباقون حول المركيز ينتظرون رحمة الله وإحسانه.

انتشر السابحون في كل مكان، ومشت وراءهم عيون الناظرين وقلوبهم، فقامت بينهم وبين الأمواج المتلاطمة معركة هائلة، وكانوا يظفرون فيها مرة ويتراجعون أخرى، وكانوا إذا لاح لهم على البعد قميص الغريقة أو شعرها عَظُم عندهم الأمل، فاندفعوا

وراءها مستبسلين مستقتلين يغالبون جبال الأمواج المعترضة في طريقهم، حتى إذا دنوا من المكان الذي لمحوها فيه لا يجدون أمامهم شيئًا، ثم لا يلبث الموج أن يكرَّ عليهم فيدفعهم إلى الضفة كما كانوا.

وما زالت الفترات بين ظهور الغريقة واختفائها تتسع شيئًا فشيئًا حتى غابت عن الأعين ولم تظهر، فهبط السابحون وراءها ولبثوا ساعة يرسبون ويطفون، ثم ظهروا على وجه الماء يحملونها على أيديهم، ولا يعلم الناس أحية أم ميتة، وما زالوا يسبحون بها وأصوات الدعاء لها والبكاء عليها ترن في الضفتين، فتردد رنينها آفاق السماء، حتى وصلوا بها إلى الضفة، فألقوها على الأرض فإذا هي ميتة.

وما هي إلا ساعة أو بعض ساعة حتى كانت الضفة مأتمًا قائمًا يبكي فيه النساء على الشهيدة والرجال على الشهيد.

لم ينتفع المركيز بنفسه بعد هذا اليوم، كما لم ينتفع جلبرت بنفسه من قبل، فقد مرضت ابنته على إثر تلك الحادثة مرضًا شديدًا، فلم تلبث أن لحقت بأمها بعد ثلاث ليالٍ، واستحال الحب الذي كانت تضمره له زوجته إلى بغضٍ واحتقار، فهجرته وسافرت إلى «نيس»، ولزمه خيال ذلك المنظر الذي رآه من شرفة القصر ليلة الغرق لا يفارقه ليله ونهاره، فكان كلما مشى في طريقٍ توهَّم أن أمامه نهرًا هائجًا تتخبط «سوزان» في لجته، وتصيح «ماري» على ضفته، فيصرخ قائلًا: «لبيك يا سوزان!» ويندفع إلى الأمام كأنما يُريد أن يُلقي بنفسه في النهر الذي توهمه لينجي الغريقة التي تخيلها، فينأى عنه المنظر كلما دنا منه حتى ينال منه التعب، فيسقط حسيرًا طريحًا.

وكان يهيم على وجهه أحيانًا حتى يصل إلى ضاحية قرية «ليني»، فيرى امرأةً عجوزًا مكبَّةً على قبرٍ بين يديها تبكي وتنتحب، فيعلم أنها «كاترين»، وأن القبر قبر قتلاه، فيتراجع خائفًا مذعورًا، ويصرخ قائلًا: «الرحمة الرحمة! العفو العفو!»

وكثيرًا ما كان يراه نساء الفلاحين ساقطًا في بعض الأماكن التي كُنَّ يرين فيها «جلبرت»، فيقلن: «لقد انتقم الله للشهيد المسكين والشهيدة المظلومة.» وكان منظر الماء يهيجه أكثر من كل منظرٍ سواه، فإذا رآه ثار واضطرب وتهافت عليه يريد اقتحامه، لولا أن يتداركه من يراه من المارة.

ولم يَزَل هذا شأنه حتى رأى الناس جثته في صباح يومٍ من الأيام طافيةً على وجه النهر في المكان الذي غرقت فيه «سوزان»، فعلموا أنها نهاية الجزاء.

مرت على هذه الحادثة أعوامٌ طوالٌ، ولا يزال عجائز قرية «ليني» والقرى المحيطة بها يحفظنها حتى اليوم، ويبكين كلما ذكرنها، ويروينها لبناتهن وحفيداتهن عبرةً يعتبرن بها كلما طاف بهن طائفٌ من شرور الرجال.

العقاب

موضوعة

رأيت فيما يرى النائم في ليلةٍ من ليالي الصيف الماضي كأني هبطت مدينةً كبرى، لا عِلم لي باسمها، ولا بموقعها من البلاد، ولا بالعصر الذي يعيش أهلها فيه، فمشيت في طرقها بضع ساعات، فرأيت أجناسًا من البشر لا عداد لهم، ينطقون بأنواعٍ من اللغات لا حصر لها، فخُيِّل إليَّ أن الدنيا قد استحالت إلى مدينة، وأن الذي أراه بين يدي إنما هو العالم بأجمعه من أقصاه إلى أقصاه، فلم أَزَل أتنقَّل من مكان إلى مكان، وأداول بين الحركة والسكون حتى انتهى بي المسير إلى بنيةٍ عظيمة، لم أرَ بين البِنَى أعظم منها شأنًا ولا أهول منظرًا، وقد ازدحم على بابها خلقٌ كثيرٌ من الناس، ومشى في أفنيتها وأبهائها طوائف من الجند يخطرون بسيوفهم وحمائلهم جيئةً وذهوبًا، فسألت بعض الواقفين: «ما هذه البنية؟ وما هذا الجمع المحتشد على بابها؟» فعلمتُ أنها قصر الأمير، وأن اليوم يوم القضاء بين الناس والفصل في خصوماتهم.

وما هي إلا ساعة حتى نادى منادٍ في الناس أنْ قد اجتمع مجلس القضاء فاشهدوه، فدخل الناس ودخلتُ على إثرهم، وجلست حيث انتهى بي المجلس، فرأيت الأمير جالسًا على كرسيٍّ من الذهب يتلألأ في وسط الفناء تلألؤ الشمس في دارتها، وقد جلس على يمينه رجل يلبس مسوحًا وعلى يساره آخر يلبس طيلسانًا، فسألت عنهما، فعرفت أن الذي على يمينه كاهن الدير، وأن الذي على يساره قاضي المدينة، ورأيته ينظر في ورقةٍ بيضاء بين يديه، فأكبَّ عليها ساعة ثم رفع رأسه وقال: «لِيُؤْتَ بالمجرمين.»

ففُتح باب السجن وكان على يسار الفناء، فتكشَّف عن مثل خلق الليث منظرًا وزئيرًا، وخرج منه الأعوان يقتادون شيخًا هرمًا تكاد تُسْلِمُهُ قوائمه ضعفًا ووهنًا، فسأل الأمير: «ما جريمته؟»

فقال الكاهن: «إنه لص دخل الدير، فسرق منه غِرارةً من غرائر الدقيق المحبوسة على الفقراء المساكين.»

فضجَّ الناس ضجيجًا عاليًا وصاحوا: «ويلٌ للمجرم الأثيم، أيسرق مال الله في بيت الله؟» ثم نودي بالشهود، فشهد عليه رهبان الدير، فتسارَّ الأمير مع الكاهن هنيهةً، ثم صاح: «يُقاد المجرم إلى ساحة الموت، فتُقطع يمناه ثم يسراه، ثم بقية أطرافه، ثم يقطع رأسه، ويقطع طعامًا للطير الغادي والوحش الساغب!» فجثا الشيخ بين يدي الأمير، ومد إليه يده الضعيفة المرتعشة يحاول أن يسترحمه، فضرب الأعوان على فمه واحتملوه إلى محبسه.

ثم عادوا وبين أيديهم فتى في الثامنة عشرة من عمره، أصفرُ نحيلٌ يضطرب بين أيديهم خوفًا وفرقًا، حتى وقفوا بين يدي الأمير، فسأل: «ما جريمته؟»

فقال الكاهن: «إنه قاتلٌ، ذهب أحد قواد الأمير إلى قريته لجمع الضرائب، فطالبه بأداء ما عليه من المال، فأبى وتوقَّح في إبائه، فانتهره القائد، فاحتدم غيظًا وجرَّد سيفه من غمده وضربه به ضربةً ذهبت بحياته.»

فصاح الناس: «يا للفظاعة والهول! إن من يقتل نائب الأمير فكأنما قتل الأمير نفسه.» ثم جيء بأعوان القائد المقتول، فأدوا شهادتهم، فأطرق الأمير لحظة، ثم رفع رأسه، وقال: «يُقاد المجرم إلى ساحة الموت فيُصلب على أعواد شجرةٍ، ثم تُفْصَد عروقه كلها، حتى لا يبقى في جسمه قطرة واحدة من الدم.» فصرخ الغلام صرخةً حال الأعوان بينه وبين إتمامها، واحتملوه إلى السجن.

وما لبثوا أن عادوا بفتاةٍ جميلة، كأنها الكوكب المشبوب حسنًا وبهاءً، لولا سحابة غبراء من الحزن تتدجَّى فوق جبينها، فقال الأمير: «ما جريمتها؟»

فقال القاضي: «إنها امرأة زانية، دخل عليها رجل من أهلها فوجدها خالية بفتًى غريب، كان يحبها ويطمع في الزواج منها قبل اليوم.»

فهاج الناس واحتدموا وهتفوا: «القتل القتل! الرجم الرجم! إنها الجريمة العظمى والخيانة الكبرى.»

فقال الأمير: «أين شاهدها؟»

فدخل قريبها الذي كشف أمرها فشهد عليها، فهمس القاضي في أذن الأمير ساعة، ثم قال الأمير: «تُؤخذ الفتاة إلى ساحة الموت، فتُرجم عاريةً حتى لا يبقى على لحمها قطعة جلد، ولا على عظمها قطعة لحم.» فهلَّل الناس وكبَّروا إعجابًا بعدل الأمير وحزمه، وإكبارًا لسطوته وقوته، وهتفوا له ولكاهنه وقاضيه بالدعاء.

ثم نهض فنهض الناس بنهوضه، ومضوا لسبيلهم فرحين مغتبطين، وخرجتُ على أثرهم حزينًا مكتئبًا أفكر في هذه المحاكمة الغريبة، التي لم يُسمع فيها دفاع المتهمين عن أنفسهم، ولم يشهد فيها على المتهمين غير خصومهم، ولم تُقدر فيها العقوبات على مقدار الجرائم، وأعجب للناس في ضعفهم واستخذائهم أمام القوة القاهرة، وغلوهم في تقديسها وإعظامها، وإغراقهم في الثقة بها والنزول على حكمها عدلًا كان أو ظلمًا، رحمة أو قسوة، وأردد في نفسي هذه الكلمات: «ليت شعري، ألا يوجد بين هذه الجماهير لص أو قاتل أو زانٍ يعلم عذرهم فيرحمهم، وينظر إلى جرائمهم بالعين التي ينظر بها إلى جريمته، ويتمنى لهم من الرحمة والمغفرة ما يتمنى لنفسه، إن قُدر له أن يقف في موقفٍ مثل موقفهم أمام قضاةٍ مثل قضاتهم؟!

ألا يجوز أن تكون الزانية غير زانية؟ والقاتل إنما قتل دفاعًا عن عِرضه أو ماله؟! واللص إنما سرق ما يسد به جوعته أو جوعة أهل بيته؟!

ألم يرتكب الأمير جريمة القتل مرة واحدة في حياته فيرحم القاتلين عند النظر في جرائمهم؟!

ألم يسقط إلى يد الكاهن يومًا من الأيام دينارٌ من غير حِلِّه فتخفُّ لوعة أسفه على الغِرارة المسروقة من ديره ويغتفر هذه لتلك؟!

ألم تَزِلَّ قدم القاضي مرة واحدة فيما مرَّ به من أيام حياته فتهدأ ثورة غضبه على الساقطين والساقطات؟!

من هم هؤلاء الجالسون على هذه المقاعد يتحكمون في أرواح العباد وأموالهم كما يشاءون، ويقسمون السعود والنحوس بين البشر كما يريدون؟!

إنهم ليسوا بأنبياء معصومين، ولا بأملاكٍ مطهرين، ولا يحملون في أيديهم عهدًا من الله تعالى بالنظر في أمر عباده وتوزيع حظوظهم وأنصبتهم بينهم، فبأي حق يجلسون هذه الجلسة على هذه الصورة؟! ومن أي قوة شرعية يستمدون هذه السلطة التي يستأثرون بها من دون الناس جميعًا؟!

من هو الأمير؟ أليس هو المستبد الأعظم في الأمة؟ أو سلالة المستبد الأعظم فيها، الذي استطاع بقوته وقهره أن يتخذ من أعناق الناس وكواهلهم سلمًا يصعد عليها إلى العرش الذي يجلس عليه؟!

من هو الكاهن؟ أليس هو أبرع الناس وأمهرهم في استغلال النفوس الضعيفة والقلوب المريضة؟!

من هو القاضي؟ أليس هو أقدر الناس على إلباس الحق صورة الباطل والباطل صورة الحق؟!

ومتى كان المستبدون واللصوص والظلمة أخيارًا صالحين وأبرارًا طاهرين؟!

عجيبٌ جدًّا أن يقتل الرجلُ الرجلَ لغضبةٍ يغضبها لِعرضه أو شرفه فيُسمى مجرمًا، فإذا قتل الأمير القاتل سُمي عادلًا، وأن يسرق السارق اللقمة يقتات بها أو يُقِيت بها عياله فيُسمى لصًّا! فإذا أمر القاضي بقطع أطرافه والتمثيل به سُمي حازمًّا! وأن تسقط المرأة سقطةً ربما ساقتها إليها خدعةٌ من خداع الرجال أو نزغةٌ من نزغات الشيطان، فيستنكر الناس أمرها، ويستبشعون منظرها، فإذا رأوها مشدودةً إلى بعض الأنصاب عارية تتساقط عليها حجارة من كل صوب، أَنِسوا بمشهدها، وأعجبهم موقفها ومصيرها!

كما أن النار لا تطفئ النار، وشارب السم لا يُعالَج بشربه مرة أخرى، وكما أن مقطوع اليد اليمنى لا يُعالج بقطع اليد اليسرى، كذلك لا يعالج الشر بالشر، ولا يُمحى الشقاء في هذه الدنيا بالشقاء.»

ولم أَزَل أحدِّث نفسي بمثل هذا الحديث، حتى أقبل الليل فمررت بساحةٍ مظلمة موحشة تتطاير في جوها أسرابٌ من الطير غادية رائحة، فاخترقتها حتى بلغت أبعد بقاعها، فرأيت منظرًا هائلًا لا يزال أثره عالقًا بنفسي حتى الساعة.

رأيت الشيخ جثةً معفرةً بالتراب لا رأس لها، ولا أطراف، ثم رأيت رأسه وأطرافه مبعثرة حواليه كأنها نوادب يندبنه حاسراتٍ، ورأيت الفتى مشدودًا إلى شجرة فرعاء كأنه بعض أغصانها، وقد سال جميع ما في عروقه من الدم حتى أصبح شبحًا ماثلًا، أو خيالًا ساريًا، ورأيت الفتاة كتلةً حمراء من اللحم لا يستبين لها رأس ولا قدم، وقد أحاطت بها أكوامٌ من الحجارة المخضبة بدمائها، ثم رأيت بجانب هذه الجثث الثلاث حفرة جوفاء تَفْهَق بالدم، فعلمت أنها مجمع دماء هؤلاء المساكين، فشعرت كأن سحابة سوداء تهبط على عيني قليلًا قليلًا، حتى غاب عن نظري كل شيءٍ، فسقطت في مكاني لا أشعر بشيءٍ مما حولي، فلم أستفق حتى مضت دولةٌ من الليل.

ففتحت عيني فإذا شبحٌ أسود يدنو مني رويدًا رويدًا، فارتعتُ لمنظره، وفزعتُ إلى ساق الشجرة فاختبأت وراءه، فما زال يتقدم حتى صار بجانبي، فأشعل مصباحًا صغيرًا كان في يده، فتبينته على نوره، فإذا عجوز شمطاء في زي المساكين وسحنتهم، فمشت تتصفح وجوه القتلى حتى بلغت مصرع الشيخ، فجثت بجانبه ساعة تبكيه وتندبه، ثم مشت إلى رأسه وأطرافه فجمعتها وضمتها إلى جثته، ثم احتفرت له حفرةً تحت ساق الشجرة فدفنته فيها، وقامت على قبره تودعه وتقول: «في سبيل الله ما لقيت في سبيلي وسبيل أحفادك البؤساء أيها الشهيد المظلوم، وفي ذمة الله وكنفه روحٌ طار عن جسدك، وجسدٌ ضمه قبرك، فقد كنت خير الناس زوجًا وأبًا، وأطهرهم لسانًا ويدًا، وأشرفهم قلبًا ونفسًا، فاذهب إلى ربك لتلقى جزاءك عنده، واطلب إليه الرحمة لجميع الناس حتى لقاتليك وظالميك، واسأله أن يلحقني بك وشيكًا، فلا شيء يعزيني عنك بعد فراقك إلا الأمل في لقائك!»

فأبكاني بكاؤها وأحزنني منظرها، ووقع في نفسي أنها صادقة فيما تقول، وأن شيخها شهيدٌ من شهداء القضاء، وأحببت أن أقف على قصتها وقصته، فبرزتُ من مخبئي ومشيت إليها، فارتاعت لمرآي عند النظرة الأولى، ثم سكتت كأنما ذكرت ألا قيمة لمصائب الحياة بعد مصابها الذي نزل بها.

فابتدرتها بقولي: «لا تُرَاعِي يا سيدتي، فإنني رجلٌ غريبٌ عن هذا البلد، لا أعرف من شأنه ولا من شأن أهله شيئًا، وقد رأيت الساعة موقفك على هذا القبر وتفجُّعك على ساكنه، فرثيت لك وبكيت لبكائك، وتمنيت لو أفضيتِ إليَّ بذات نفسك، علَّني أستطيع أن أكون لك عونًا على همك.»

فاستعبرت باكيةً وأنشأت تحدثني وتقول: «إن زوجي لم يكن في يوم من أيام حياته لصًّا ولا سارقًا، بل قضى أيام شبابه وكهولته عاملًا مجدًّا لا يفتر ساعة واحدة عن السعي في طلب رزقه ورزق أهل بيته حتى كبر ولده، وكان واحده، فاشتدَّ به ساعده واحتمل عنه ما كان يستقل بحمله من الهم، وما هو إلا أن نعمنا به وبمعونته حقبةً من الدهر، حتى نزلت به نازلة الموت، فذهبتْ بحياته ونحن أحوج ما كنا إليه، وخلَّف وراءه خمسة أولادٍ صغار لا يتجاوز أكبرهم العاشرة من عمره، وكانت قد أدركت أباه الشيخوخة، فاجتمع عليه هم الكبر وهم الثكل، فأصبح عاجزًا عن العمل لا يستطيعه إلا في الفينة بعد الفينة، وأصبحنا جميعًا في حالة من الشقاء والبؤس، لا يعرف مكانها من نفوسنا إلا من ألمَّ به في حياته طرفٌ منها، حتى طلعت علينا شمس يوم من الأيام،

وليس في يدنا ما نُقَوِّم به أصلاب صغارنا، ولا ما نعللهم به تعليلًا، فأُسْقِطَ في يدنا، وعلمنا أنَّا هالكون جميعًا إن لم يتداركنا الله برحمة من عنده.

فلم أرَ بدًّا من أن ألجأ إلى الخطة التي يلجأ إليها كل مضطرٍّ عديم، فبرزتُ إلى الناس أتعرَّض لمعروفهم وأستندي ماء أكفِّهم، فلم أجد بينهم من يُحسن إليَّ بجرعة أو مضغة، ولا من يدلني على سبيل ذلك، وكان أكبر ما حال بيني وبينهم وصرف وجوههم عني، أني ألبس مرقعة الشحاذين ولا أحمل رَكْوَتَهُمْ، فعدتُ إلى منزلي وبين جنبي من الهم ما الله به عليم، فرأيت الأطفال سهدًا يتضاغون جوعًا، ورأيت الشيخ جالسًا بينهم يبل تربة الأرض بدموعه ويقرع كفَّه بكفِّه لا يعلم ماذا يصنع، ولا كيف يحتال، ولو أن شخص الموت برز إليَّ في تلك الساعة لكان منظره أهون على نفسي من منظر هؤلاء الصبية، وهم يحدقون في وجهي عند دخولي، ويدورون حولي ليروا هل عدت إليهم بما يسد جوعتهم، وما عدت إليهم إلا باليأس القاتل والكمد الشامل.

فتقدمت نحو الشيخ، وقلت له: إن في دير المدينة كما يزعمون مالًا للصدقات، يتولى الكاهن الأعظم إنفاقه على الفقراء والمساكين، فلو ذهبتَ إليه وكشفتَ له خَلَّتك، وسألته أن يمنحك عُلَالَةً تستعين بها على أمرك لرجونا أن نطفئ لوعة هؤلاء الأطفال المساكين.

فاستنار وجهه بنور الأمل، وقام إلى عصاه فاعتمد عليها ومشى إلى الدير حتى بلغه، فصعد إلى حجرة الكاهن حتى وقف بين يديه، فنفض له جملة حاله، وسكب تحت قدميه جميع ما أبقت الأيام في جفنيه القريحين من دموع، فاستقبله الكاهن بأقبح ما يستقبل به مسئولٌ سائلًا، وقال له: إن الدير لا يُحسن إلا إلى الذين أسلفوه الإحسان من قبل، وما كنت في يومٍ من أيام رغدك ورخائك من المحسنين إليه، فاذهب لشأنك، فأبواب العيش واسعة بين يديك، فإن ضاقت بك فأبواب الجرائم أوسع منها!

فخرج من حضرته كئيبًا محزونًا لا يرى فضاء الدنيا في نظره إلا ككفة الحابل أو أُفحوص القطاة، حتى نزل إلى ساحة الدير فلمح في إحدى زواياه غرارة دقيق، فحدَّثته نفسه بها، وما كانت تُحدِّثه لولا العوز والفاقة، ثم أدركه الحياء، فأغضى عنها واستمر سائرًا في طريقه حتى صار بجانبها، فوقع نظره عليها مرة أخرى، فعاوده حديثه الأول، فحاول دفعه، فلم يستطع، فجلس بجانبها يحدِّث نفسه ويقول: إن الطعام طعام الفقراء والمساكين، وأنا فقيرٌ مسكين، لا أعلم أن بين أسوار هذه المدينة ولا في جميع أرباضها رجلًا أحوج ولا أفقر مني، فإن كان الطمع في هذه الغرارة جريمة فقد أذن لي الكاهن بارتكاب الجرائم في سبيل العيش.

ثم مشى إليها فاحتملها على ظهره ومشى بها جاهدًا مترجحًا، فما تجاوز عتبة الدير حتى أثقله الحمل، وشعر أنه عاجزٌ عن المسير، فحدثته نفسه بإلقائه عن ظهره، ثم تمثل له منظر أحفاده الصغار، وهم أَلْقَاء تحت جدران البيت يتضورون جوعًا، فحمل على نفسه ومشى يعتمد على عصاه مرة وعلى الجدران مرة أخرى، حتى نال منه الجهد، فأحس كأن أنفاسه قد جمدت في صدره لا تهبط ولا تعلو، وأن ما كان باقيًا في عينيه من نور قد انطفأ دفعة واحدة، فأصبح لا يرى شيئًا مما حوله، وإذا نَفْثَةٌ من دمٍ دفقت من صدره فانحدرت على ردائه، فسقط في مكانه مغشيًّا عليه.

ولم يَزَل على حاله تلك، حتى مرَّ به العسس فرأوه ورأوا الغرارة بجانبه، فارتابوا له، وكان رهبان الدير قد أخذوا يتصايحون فيما بينهم: «الغرارة، الغرارة!» وينشدونها في أنحاء الدير حتى يئسوا منها، فخرجوا يطلبونها في كل مكان حتى التقوا بالعسس ملتفين حول الشيخ، فعرفوا ضالتهم، وما هي إلا ساعة حتى كانت الغرارة في الدير، وكان الشيخ في السجن، ثم كان بعد ذلك ما رأيت من أمره. فوا أسفاه عليه! لقد مات شهيدًا مظلومًا، ووا رحمتاه لي ولأطفالي البؤساء المساكين من بعده!»

ثم نهضتْ من مكانها ومسحت عَبرتها بطرف ردائها، ونظرت إلى القبر نظرة طويلة وقالت: «الوداع يا رفيق صباي، وعماد شيخوختي، الوداع يا خير الأزواج وأبر العشراء، الوداع حتى يجمع الله بيني وبينك في دار جزائه.» ثم انكفأتْ راجعة في الطريق التي جاءت منها.

وما هو إلا أن تغلغل شخصها في أعماق الظلام، حتى رأيت شبحًا آخر يتراءى من حيث اختفى الشبح الأول، وما زال يتقدم نحوي مُتسللًا يختلس خطواته اختلاسًا، فاختبأتُ وراء الشجرة لأرى ما هو صانع، وكان القمر قد بدأ يُشرفُ على الوجود من مَطْلَعِهِ، ويرسل الخيوط الأولى من أشعته على تلك الساحة الكبرى، فرأيت الشبح على نوره، فإذا فتاةٌ جميلة باكية لم أرَ في حياتي دمعة على خدٍّ أجمل من دمعتها على خدها، فدارت بعينيها لحظة، حتى وقع نظرها على جثة المصلوب بين أعواد الشجرة، فمشت إليه ومدت يدها وأضجعته على الأرض ووقفت بجانبه ساعة تنظر إليه جامدة ساكنة كأنها غير آبهة ولا حافلة، ثم هتفت صارخة: «وا شقيقاه!» وسقطت فوقه تضمُّه وتقبِّله وتلثم شعره وجبينه، وتزفر فيما بين ذلك زفيرًا متداركًا، كأنما تنفث أفلاذ كبدها نفثًا، حتى نال منها الجهد، فترنَّحت قليلًا ثم هوت بجانبه هوى الجذع الساقط لا حراك بها.

فأهمني أمرها وخفت أن يكون قد لحق بها مكروهٌ، فمشيت إليها حيث صرت بجانبها، فشعرت بأنفاسها الضعيفة تتردد في صدرها، فعلمت أنها حية، فجلست فوق

رأسها أندبها وأدعو الله لها حتى استفاقت بعد هنيهة، فرأتني بجانبها فنظرت إليَّ نظرةً حائرة، ثم تقدمت نحوي وقالت: «على من تبكي أيها الرجل الغريب؟»

قلت: «أبكي عليك يا سيدتي وعلى فقيدك البائس المسكين!»

قالت «نعم، إنه بائس مسكين، فابكِ عليه يا سيدي كثيرًا، فقد كان زينة الشباب وزهرة الحياة وريحانة النفوس ومتعة الأفئدة والقلوب، ولقد ظلموه إذ قتلوه، فما كان قاتلًا ولا مجرمًا، ولكنه رجل رأى عِرضه فريسةً في يد من يريد تمزيقه، فقطع تلك اليد الممتدة إليه، وانتقم لنفسه وللشرف والفضيلة منها، ولو أنصفوه لاستبقوه رحمةً به وبشبابه، فما أجرم من ذاد عن عرضه ولا أثم من قتل قاتله.»

قلت: «هل لَكِ أن تقصِّي عليَّ قصته يا سيدتي؟»

قالت: «نعم، نزل قريتنا صباح يوم من الأيام قائدٌ من قواد الأمير الذين يطوفون البلاد لجمع الضرائب، فمرَّ بأبيات القرية بيتًا بيتًا حتى بلغ منزلنا، وكنت واقفةً على بابه، فنظر إليَّ نظرةً مريبة طار لها قلبي رعبًا وفرقًا، ثم سألني عن أخي، فأرشدتُهُ إلى مكانه، فسأله عن المال، فاسْتَنْسَأَهُ إياه أيامًا قلائل حتى يبيع غلته، فأبى إلا أن ينقده الساعة أو يأخذني رهينةً عنده إلى يوم الوفاء.

وغمز بي بعض أعوانه فداروا حولي، وكنت أسمع قبل اليوم حديث أولئك الفتيات الشقيات اللواتي يدخلن رهائن في قصر الأمير، فلا يخرجن منه إلا ساقطاتٍ أو محمولات، ففزعتُ إلى أخي ولصقت به، فوقف بيني وبين الرجل، وقال له: لا شأن لك مع الفتاة إنما أنا صاحب المال، وأنا المأخوذ به من دون الناس جميعًا، فإن كان لا بد لك من رهينة فأنا رهينة مالي حتى يصل إليك.

فقال له: لا بد لي من المال أو الرهينة، ولا بد أن تكون الرهينة كما أُريد، فإن أبيت فحياتك فداء عنها.

فغضب أخي غضبةً انتفض لها في جبينه عرقٌ لم أرَهُ في ساعة من ساعات غضبه قبل اليوم، وقال له: فلتكن حياتي فداءً لشرفي. ثم جرَّد سيفه وضربه به ضربة طارت برأسه، ووقف في مكانه لا يبرحه وسيفه يقطر دمًا حتى غَلَّه الأعوان واحتملوه إلى السجن. فتلك حياته يا سيدي وذاك مماته، فلئن بكيتُهُ فأنا أبكي فتى الفتيان هِمَّةً ونجدةً، ونادرة الرجال عزةً وإباءً، وأفضل الإخوة رحمة وحنانًا.»

ثم قالت: «هل لك أن تعينني يا سيدي على مواراته قبل أن يحول النهار بيني وبينه؟ فقد أصبحتُ واهيةً متضعضعة، لا أقوى على شيءٍ.»

فقمتُ إلى الشجرة فاحتفرتُ حول ساقها حفرةً بجانب حفرة الشيخ فواريته فيها، فتقدمتِ الفتاة نحو القبر وجثت بجانبه ساعة مطرقةً ساكنة، لا أعلم هل هي باكية أو ذاهلة، حتى فارقت مكانها، فرأيت تربة القبر مخضلة بدموعها، ثم مدَّت يدها إليَّ وقالت: «شكرًا لك يا سيدي، فقد أعنتني على موقفٍ قلما يجد فيه مستعينٌ معينًا.» ومضت لسبيلها.

فأتبعتها نظري حتى اختفت آخر طيةٍ من طيات ردائها، فعدت إلى نفسي، فإذا جثة الفتاة المرجومة لا تزال مكانها، فهاجني منظرها، وقلت في نفسي: «إنني لا أدخر لنفسي عملًا أرجو فيه رحمة الله وإحسانه يوم جزائه، أفضل من مواراة هذه المسكينة التراب.» فاحتفرت لها حفرةً بجانب حفرة الشهيدين، ثم ألقيت عليها ردائي واحتملتها على يدي حتى أضجعتها في حفرتها.

فإني لأحثو عليها التراب إذ شعرت بحركةٍ ورائي، فالتفتُّ فإذا فتًى يافعٌ متلفعٌ ببردةٍ سوداء لا يستبين منها غير بياض وجهه، فابتدرني بقوله: «من صاحب هذا القبر الذي تحثو ترابه يا سيدي؟»

قلت: «فتاة مرجومة، رأيت جثتها الساعة منبوذةً في هذا العراء، فرحمت مصرعها، واحتفرت لها هذا القبر الذي تراه.»

فقال: «إن لي يا سيدي مع هذه الفتاة شأنًا، فهل تأذن لي أن أودعها الوداع الأخير قبل أن يحول التراب بيني وبينها؟»

قلت: «نعم، شأنك وما تريد.»

وتنحيت قليلًا، فدنا من القبر وجثا فوق تربتها، وظل يناجي الدفينة نجاء خِلتُ أن الكواكب تردده في سمائها والرياح في أجوائها، حتى اشتفت نفسه، فقام إلى التراب يهيله عليها حتى واراها.

ثم التفت إليَّ وقال: «لقد شكر الله لك يا سيدي هذه اليد التي أسديتها إلى هذه الفتاة المظلومة بستر ما كشف الناس عن عورتها، وحِفظ ما أضاعوا من حرمتها، فجزاك الله خيرًا بما فعلت، وأحسن إليك كما أحسنت إليها.»

وأراد الرجوع فاستوقفته، وقلت له: «وهل ماتت هذه الفتاة مظلومة كما تقول؟»

فانفرجت شفتاه عن ابتسامة مرةٍ، ونظر إليَّ نظرةً هادئة مطمئنة وقال: «نعم يا سيدي، ولولا ذلك ما رأيتني الساعة واقفًا على حافة قبرها أندبها ... أنا الرجل الذي اتهموها به، وأستطيع أن أقول لك، كما أقول لربي يوم أقف بين يديه رافعًا إليه ظلامتها: إنها بريئة مما رموها به، وإنها أطهر من الزهرة المطلولة، وأنقى من القطرة الصافية.

لقد أحببت هذه الفتاة مذ كانت طفلةً لاعبة، وأحبَّتني كذلك، ثم شببنا وشب الحب معنا، فتعاقدنا على الوفاء والإخلاص، ثم خطبتُها إلى أبيها فأخطبني راضيًا مسرورًا، حتى إذا لم يبقَ بيني وبين البناء بها إلا أيام معدودات؛ إذ نزلت بأبيها نازلة الموت، فعلمنا أن لا بد لنا من الانتظار بأنفسنا عامًا كاملًا، ففعلنا.

حتى إذا انقضى العام أو كاد، حدث أن ذهبت الفتاة إلى قاضي المدينة في أمرٍ يتعلق بميراثها، فرآها القاضي، فتبعتْها نفسُهُ، فأرسل وراء عمها، وكان ولي أمرها بعد أبيها، وهو رجل من الطامعين المداهنين الذين لا يبالون أن يخوضوا بحرًا من الدم إذا تراءى لهم على شاطئه الآخر دينارٌ لامعٌ، فعرض عليه رغبته في الزواج من ابنة أخيه، فطار بهذه المنحة فرحًا وسرورًا، ولم يتردد في إجابة طلبه، وعاد إلى الفتاة يحمل إليها هذه البشرى، فاستقبلتْهُ بوجه بَاسِرٍ وقالت له: إنني لا أستطيع أن أكون خطيبة رجلين في آنٍ واحد. فلم يبالِ بقولها وقال لها: ستتزوجين ممن أُريد طائعة أو كارهة، فلا خيار لك في نفسك إنما الخيار لي في أمرك وحدي!

وما هي إلا أيامٌ قلائل حتى أعدوا لها عدة زواجها وسموا يومًا لزفافها، فما غربت شمس ذلك اليوم، حتى جمعت ما كان لها في بيتها من ثياب وحلية، وخرجت تحت ستار الليل هائمة على وجهها لا تعلم أين تذهب، ولا أي طريق تسلك، وكان عمها قد رفع إلى القاضي أمر فرارها، فبثَّ عليها عيونه وأرصاده يطلبونها في كل مكانٍ، حتى لمحها بعضهم جالسة تحت بعض الجدران، فأقبل عليها، فذعرت لمرآه وتركت حقيبتها مكانها، وفرت بين يديه تعدوا عدوًا سريعًا.

وكنت عائدًا في تلك الساعة إلى منزلي، فرأتني فألقت نفسها عليَّ وقالت: إنهم يتبعونني، وإنهم إن ظفروا بي قتلوني، فارحمني يرحمك الله. فأهمَّني أمرها، وذهبت بها إلى منزلي وأخفيتها في بعض حجراته، وما هي إلا ساعة حتى دخل عمها ووراءه أعوان القاضي يطلبها طلبًا شديدًا، فأنكرت رؤيتها فلم يصدقني، وأخذ يضرب أبواب الحجرات بابًا بابًا حتى ظفر بها، فصاح: ها هي ذي الفتاة الزانية، وهذا صاحبها. فأقسمت له بكل مُحْرِجَةٍ من الأيمان أنها بريئةٌ مما يرميها به، فلم يُصْغِ إليَّ، وأمر الأعوان فاحتملوها، وحاولت أن أحول بينهم وبينها، فضربني أحدهم على رأسي ضربة طارت بصوابي فسقطتُ مغشيًّا عليَّ، فلم أستفق إلا بعد ساعة، فوجدت الحمى قد أخذت مأخذها من جسمي، فلزمت فراشي بضعة أيام لا أفيق ساعة، حتى يتمثل لي ذلك المنظر الذي رأيته، فأشعر بالرعدة تتمشى في أعضائي، فأعود إلى ذهولي واستغراقي،

حتى أدركتني رحمة الله فَأَبْلَلْتُ منذ الأمس بعض الإبلال، واستطعت أن أخرج الليلة من منزلي، فعلمتُ ما تم من أمر تلك المسكينة، فجئتُ كما تراني أودعها الوداع الأخير، وأواري جثتها التراب، وما أنا بالسَّالِي عنها، ولا بالذائق حلاوة العيش من بعدها حتى ألحق بها.»

ثم ألقى على قبرها نظرةً جمعت في طياتها جميع معاني النظرات البائسات من حزنٍ ويأس، ولوعةٍ وشقاء، ومضى لسبيله.

فما أبعد إلا قليلًا حتى رأيتُ القمر ينحدر إلى مغربه، ثم ما لبث أن اختفى، فإذا الفضاء ظلمة وسكون، وإذا الساحة وحشةٌ وانقباض، فصعدت على ربوة عالية مشرفة على القبور الثلاثة، ثم تلفعت بردائي، وألقيت رأسي على بعض الصخور، وأنشأت أحدث نفسي وأقول: «ليت شعري! ألا يوجد في هذه الدنيا عادل ولا راحم؟ فإن خَلَتْ منهما رقعة الأرض فهل خلت منهما ساحة السماء؟

أَجْرَمَ الزعيم الديني؛ لأنه ضنَّ على ذلك الشيخ المسكين بدرهمٍ من مال يسد به جوعته وجوعة أهل بيته، فاضطر الرجل إلى ارتكاب جريمة السرقة، فعُوقب السارق على سرقته، ولم يُعاقب القاسي على قسوته، ولولا قسوة القاسي ما كانت سرقة السارق.

وأجرم الأمير لأنه أرسل قائده لاختطاف فتاةٍ حرةٍ لا تُؤثر أن تجود بعِرضها، فاضطر أخوها إلى الذود عنها فارتكب جريمة القتل، فعوقب الفتى على جريمته وسَلِمَ من العقوبة مَن دفعه إلى الإجرام.

وأجرم القاضي لأنه أراد أن يُكره فتاةً لا تحبه على الزواج منه، ففرَّت من وجهه، فعاقبوها على فرارها، ولم يعاقبوا القاضي على ظلمه واستبداده.

وهكذا أصبح المجرم بريئًا، والبريء مجرمًا، بل أصبح المجرم قاضي البريء وصاحب الحق في معاقبته!

فهل تسقط السماء على الأرض بعد اليوم، أم لا تزال تُنيرها بكواكبها ونجومها، وتمطرها غَيْثَها ومُزْنَها؟»

ثم التفتُّ إلى مصرع المقبورين فوقع نظري على بركة الدم التي اجتمعت فيها دماء هؤلاء الشهداء، فرأيت خيال نجمٍ في السماء يتلألأ فوق صفحتها، فرفعت نظري إلى النجم، فإذا هو المريخ يتلهب ويضطرم، كأنه جمرة الغيظ في أفئدة الموتورين، فعلق نظري به ساعة، ثم رأيت كأنه يهبط من عليائه رويدًا رويدًا، فيعظُم جرمه كلما ازداد هبوطه، حتى إذا لم يبقَ بينه وبين الأرض إلا ميلٌ أو بعض ميل إذا به ينتفض انتفاضًا

شديدًا، وإذا هو على صورة ملكٍ من ملائكة العذاب ينبعث الشرر من عينيه ومنخريه، ويتطاير من أجنحته وأطرافه، فلم يَزَل هابطًا حتى نزل على رأس الشجرة التي تظلل قبور الشهداء، ثم صفَّق بجناحيه تصفيقة اهتزت لها جوانب الأرض وأضاءت بها الأرحام، ثم أخذ ينطق بصوتٍ كأنه جلجلة الرعد في آفاق السماء، ويقول: «ها هم أولاء الناس قد عادوا إلى ما كانوا عليه، وها هي ذي الأرض قد ملئت شرورًا وفسادًا حتى لم يبقَ فيها بقعة طاهرة يستطيع أن يأوي إليها ملكٌ من أملاك السماء.

ها هم أولاء الأقوياء قد ازدادوا قوة، والضعفاء قد ازدادوا ضعفًا، وها هي ذي لحوم الفقراء تنحدر في بطون الأغنياء انحدارًا، فلا الأولون بمستمسكين، ولا الآخرون بقانعين.

ها هم أولاء الفقراء يموتون جوعًا فلا يجدون من يُحسن إليهم، والمنكوبون يموتون كمدًا فلا يجدون من يعينهم على همومهم وأحزانهم.

ها هم أولاء الأمراء قد خانوا عهد الله وخفروا ذمامه، فأغمدوا السيوف التي وضعها الله في أيديهم لإقامة العدل والحق، وتقلَّدوا سيوفًا غيرها، لا هي إلى الشريعة، ولا إلى الطبيعة، ومشوا بها يفتتحون لأنفسهم طريق شهواتهم ولذائذهم حتى ينالوا منها ما يريدون.

ها هم أولاء القضاة قد طمعوا وظلموا، ووضعوا القانون ترسًا أمام أعينهم يصيبون من ورائه ولا يُصابون، وينالون من يشاءون تحت حمايته ولا يُنالون.

ها هم أولاء زعماء الدين قد أصبحوا زعماء الدنيا، فحوَّلوا معابدهم إلى مغاور لصوصٍ يجمعون فيها ما يسرقون من أموال العباد، ثم يضنُّون بالقليل منه على الفقراء والمساكين.

ها هم أولاء الناس جميعًا قد أصبحوا أعوانًا للأمراء على شهواتهم، والقضاة على ظلمهم، وزعماء الأديان على لصوصيتهم، فلتسقط عليهم جميعًا نقمة الله، ملوكًا ومملوكين، ورؤساء ومرءوسين.

لِتْسقطِ العروش، ولِتُهدمِ المعابد، ولتتقوَّضِ المحاكم، وليعمَّ الخراب المدن والأمصار، والسهول والأوعار، والنجاد والأغوار، ولتغرقِ الأرض في بحرٍ من الدماء يهلك فيه الرجال والنساء، والشيوخ والأطفال، والأخيار والأشرار، والمجرمون والأبرياء، وما ظلمهم الله، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.»

وما انتهى من دعوته تلك، حتى رأيت بركة الدم تفور كما فار التنور يوم دعوة نوح، ثم فاضت الدماء منها، ومشت تتدفق في الأرض تدفق السيل المنحدر، وإذا الأرض

بحرٌ أحمر يزخر ويعجُّ، ويكتسح أمامه كل شيءٍ من زرعٍ وضرع، وقصورٍ وأكواخ، وحيوانٍ وإنسان، وناطقٍ وصامت، ثم شعرتُ به يعلو شيئًا فشيئًا، حتى ضرب بأمواجه رأس الربوة التي أنا جالسٌ فوقها، فصرختُ صرخةً عظمى فاستيقظت من نومي، وكان ذلك في صباح اليوم الثامن والعشرين من شهر يوليو ١٩١٤، فإذا صائحٌ يصيح تحت نافذة غرفتي: «إعلان الحرب.»

الضحية

مترجمة

نشأتْ «مرغريت جوتييه» فقيرةً لا تملك مالًا تشتري به زوجًا، ولا تجد بين الرجال من يبيعها نفسه بلا مال، أو يُحسن إليها بما يسدُّ خلتها، ويستر عورتها، وكان لا بد لها أن تعيش، فلم تجد بين يديها سوى عِرضها، فذهبت به إلى سوق الشقاء والآلام، فساومها فيه بعض المساومين بأبخس الأثمان، فباعته إياه كارهةً مرغمة، وكانت من الخاسرين.

ولقد كان جمالها شؤمًا عليها، فلو أنها كانت شوهاء لوجدت في الناس من يرحمها ويحنو عليها، ولكن الجمال سلعة من السلع النافقة، لا يستطيع صاحبه أن ينال ما في أيدي الناس إن كان فقيرًا معوزًا إلا من طريق المساومة فيه.

لذلك نقمت تلك الفتاة المنكوبة على الرجال جميعًا، وأقسمت أن تتخذ من جمالها — الذي هو مطمع أنظارهم وقبلة آمالهم — آلة انتقامٍ تنتقم بها منهم لعِرضها وشرفها.

ولقد برَّت بيمينها برَّ الوفي بعهده، فعاشرت الرجال ولم تحبهم، ونكبتهم في أموالهم وفي أنفسهم ولم تأسف عليهم، ونظرت إلى دموع الباكين تحت قدميها نظرات الغبطة والسرور، وهي تقول: «ويحٌ لكم يا معشر الرجال! ما كنت أطلب منكم باسم الفضيلة والشرف إلا رغيفًا واحدًا لغدائي وآخر لعشائي، فأبيتموهما عليَّ، فلما طلبت منكم باسم الرذيلة جميع ما تمتلك أيديكم من مالٍ ونَشَب، بذلتموه لي طائعين مختارين، فما أصغر نفوسكم وأخس أقداركم!

ولقد كان في استطاعة أصغركم شأنًا، وأهونكم على نفسه وعلى الناس جميعًا، أن يشتري من جسمي وقلبي وحياتي بلا ثمن سوى سدِّ خلَّتي وصيانة عِرضي فلم تفعلوا،

فها هم أولاء اليوم عظماؤكم وأشرافكم يجثون تحت قدمي جثي الكلب الذليل تحت مائدة سيده، فلا ينالون مني أكثر مما ينال منها!

أحببتم المال حبًّا جمًّا، فأبيتم إلا أن تتزوجوا ذات مالٍ لتضموا طارفها إلى تليدكم، فابذلوا اليوم لامرأةٍ مومس لا تمنحكم مالًا ولا حبًّا جميع ما في أيديكم من فضة وذهب، حتى لا يبقى لكم طارفٌ ولا تليد.»

ظهرت «مارغريت» في سماء باريس كوكبًا متلألئًا يبعث الأنوار ويبهر الأنظار، ويملأ أجواز الفضاء بهجة وضياء، فطارت حولها العقول طيران النحل حول الزهر، وسال النضار بين يديها سيلان الجدول المتدفق تحت أشعة الأصيل، وعنت لها الوجوه الكريمة، وتعفَّرت تحت قدميها الجباه الرفيعة، وأصبحت أعناق الرجال في يدها، كأنما قد سلكتهم جميعًا في سلك واحد، ثم أمسكت بطرف السلك تحركه فيتحركون، وتمسك عنه فيمسكون.

وكان شأنها معهم شأن صاحب الكلب مع كلبه، لا يشبعه فيستغني عنه، ولا يجيعه فييأس منه، فكانت تملأ نفس عاشقها أملًا ورجاء، حتى إذا ظن أن قد دنا به حظه، وأن ليس بينه وبين أمله إلا أن يمد إليه يده فيناله، ذادته عند ذود الظامئ الهيمان عن وِرْدِهِ أدنى ما يكون إلى فمه، فإذا علمت أن اليأس قد بلغ من نفسه، وأنه قد أزمع أن يركب رأسه إلى حيث لا مرد له، بعثت وراءه شعاعًا من أشعة ابتسامتها العذبة الخلابة فاستردته إليها صاغرًا مستسلمًا.

وكذلك أصبحت تلك الفتاة الجائعة العارية — التي كانت تعوزها بالأمس اللقمة وتعييها الخرقة — سيدة باريس وصاحبة عرشها، ومالكة أزِمَّة رجالها، وفاجعة قلوب نسائها، والنجم الخالق الذي تبتهل إليه العيون، والسر الغامض الذي تحار فيه الظنون.

ذلك ما يعلمه الناس من أمرها، أما ما تعلمه من أمر نفسها، فهي ترى أن جميع ما يبذله لها من فضة وذهب، وأثاث ورياش، وقصور ودور، وجياد ومركبات، لا يساوي دمعةً واحدة من تلك الدموع التي سكبتها على نفسها يوم باعت عِرضها، وأن جميع هذه اللآلئ والجواهر والأردية والتيجان التي يهبونها، إنما يهبونها لأنفسهم ليتمتعوا بمنظرها فوق جسمها، كما يتمتع صاحب الكلب بمنظر القلادة في عنق كلبه، وما له من ذلك شيء، فكأنما باعت عِرضها بلا ثمن ولا جزاء!

وكانت تخلو بنفسها حينًا فتتذكر أن جميع هذه القلوب الطائرة حولها إنما تطير على جمالها لا عليها، وأنها إن حُرمت هذا الجمال ساعةً واحدة انفضَّ الناس جميعًا من

حولها، وأصبحت وحيدة منقطعة في هذا العالم، لا يعطف عليها قلب، ولا تبكي عليها عين، فتبكي بكاء الأشقياء على أنفسهم، بل ترى أنها شقية مثلهم؛ لأنها تعاشر من لا تُحب، وتحيا بين قوم لا يُحبونها إلا حبًّا كاذبًا.

وربما مرَّت في بعض غدواتها أو روحاتها بغرفة حارس قصرها وهو جالس بين زوجه وأولاده يمنحهم حبه وإخلاصه ويمنحونه من ذلك مثل ما يمنحهم، فتتمنى أن لو كان حظها من هذه الحياة غرفةً كهذه الغرفة، وزوجًا وأولادًا كهذا الزوج وهؤلاء الأولاد، ثم لا تقترح على دهرها بعد ذلك شيئًا.

وما رآها الناس في يومٍ من أيامها استقبلت في قصرها رجلًا متزوجًا أو خاطبًا، فكانوا يحملون هذا الأمر منها على محمل الأثرة، ويقولون إنها امرأة طامعة لا تحب إلا أن يكون عاشقها خالصًا لها، ولو أنهم عرفوا حقيقة أمرها وألموا بسريرة نفسها، لعلموا أنها امرأة حزينةٌ منكوبة، قد فجعها الدهر في سعادة الزوجية فعرفت قيمتها، فهي لا تحب أن تفجع فيها امرأة غيرها.

لقد تحدث بعض الذين ألموا بشئون حياتها الخاصة أنها وهبت مرتين أو ثلاثًا لبعض الفتيات الفقيرات مهورًا يستعنَّ بها على الزواج ممن يردنَ، فلم يُصدِّق الناس هذا الخبر وقالوا: إن السالب لا يكون واهبًا، وإن ينبوع الخير لا يمكن أن ينفجر في قلوب الناس الفاجرات! ولكن الحقيقة أنها فعلت ذلك، وربما فعلت أكثر منه.

هذا هو قلب «مرغريت»، وهذه هي سريرة نفسها، فهي فتاة فاسدة، ولكنها غير راضية عن فسادها، وساقطة، ولكنها لا تحب أن ترى الفتيات ساقطات مثلها، ولو كان في استطاعة المرأة الساقطة أن تسترجع بتوبتها وإنابتها مكانتها في قلوب الناس، وأن تمحو بصلاحها ما سلف من فسادها، لكانت هي أقرب النساء إلى التوبة والنزوع، ولكن المجتمع الذي أسقطها وسلبها ذلك الرداء من الشرف الذي كانت ترتديه يأبى عليها أن يعيد إليها رداءه إن طلبته، فلا بد لها من الاستمرار في سقوطها راضية أو كارهة، وكذلك كان شأنها.

ولم يمضِ على «مرغريت» في حياتها هذه أكثر من بضعة أعوام، حتى نزل بها مرضٌ حجبها في بيتها عدة أيامٍ، ثم اشتد عليها، فأشار عليها الأطباء أن تذهب إلى حمامات «البانيير» للاستشفاء بمائها وهوائها، فسافرت إليها وحدها لا تصحبها إلا خادمتها، وكان في ذلك المصطاف في هذا العام شيخ من الأثرياء اسمه «الدوق موهان»، حضر إليه مع ابنته — وكانت مريضة بداء الصدر — ليستشفي لها من دائها، فلم

يُجْدِهَا العلاج وماتت بين يديه، فدفنها هناك، ولبث بعد موتها عدة أيام يختلف إلى قبرها ويبكيها بكاءً شديدًا.

فإنه لعائدٌ من المقبرة ذات يوم إذ لمح في طريقه «مرغريت» سائرةً وحدها، وكان ذلك اليوم الثاني من وصولها إلى «البانيير»، فدهش لمنظرها دهشة عظمى، وخيِّل إليه أن الله قد بعث له ابنته من قبرها، أو أرسل إليه خيالها ليعزيه عنها، وذلك لمكان الشبه بين صورة هذه الفتاة وصورتها، فتقدَّم نحوها ذاهلًا مشدوهًا وأمسك بطرف ردائها، وظل يحدِّق في وجهها تحديقًا طويلًا، فعجبت لشأنه وسألته ما باله، فقال لها: «هل تأذنين لي يا سيدتي أن أقبِّل يدك؟» فمدت إليه يدها وهي لا تعلم ماذا يريد ولا ما الذي أصابه، فلثمها ثم اعتذر إليها عن جرأته، بذهوله ودهشته، ومشى معها يقص عليها قصته وقصة مصابه في ابنته، وما راعه من الشبه بين صورتها وصورتها، فرثت له، وحزنت لحزنه، واستهلت دمعة رآها الشيخ من خلال أهداب عينيها المبتلة بالدموع، فسقط على يدها يقبِّلها ويشكر لها تلك الدمعة التي جادت بها عليه في ساعة شقائه. ولم يَزَل سائرًا معها حتى وصلا إلى النُّزُل، فودعها ومضى بعدما استأذنها أن يختلف إليها من حين إلى حين، فأذنته بذلك وصعدت إلى غرفتها.

فلما خلت بنفسها أنشأت تفكر في أمر تلك الفتاة المسكينة التي اختطفها الموت من يد أبيها في زهرة صباها من حيث لم يستطع طبيبٌ ولا عائدٌ ردَّ عادية القضاء عنها، ثم خطر لها أنها مريضة بمثل المرض الذي ماتت به، وأنها ربما ماتت موتتها فلا تجد بجانبها أبًا كهذا الأب يندبها ويبكي عليها، فأثَّر في نفسها هذا الخاطر تأثيرًا شديدًا، وبكت له بكاءً طويلًا، ولزمت غرفتها في ذلك اليوم لا تُفارقها.

وظل «الدوق» يختلف إليها بعد ذلك فيجالسها طويلًا، ويجد من الأنس بها والاغتباط بعشرتها ما تسكن له لوعة نفسه كلما شَبَّهَا الوجد في صدره، حتى أصبح لا يستطيع مفارقتها ساعة واحدة، وكأنما لذَّ لها أن يرى ذلك الشيخ الثاكل المنكوب في وجهها سلوته وعزاءه، فمنحته من عطفها وحبها ما لم تمنحه أحدًا من قبله، وأَنِست به أنسًا لم تأنسه بإنسان سواه.

وما هي إلا أيام قلائل حتى أَبْلَتْ من مرضها بعض الإبلال، وعاد إلى وجهها الجميل رونقه وبهاؤه، وإلى ثغرها البديع ابتسامه وافتراره، فلذَّ لها المقام في «البانيير» أيامًا طوالًا حتى شعرت بهبوب رياح الشتاء، فأزمعتِ العودة إلى «باريس»، فشقَّ ذلك على الدوق، وعلم أنها إن عادت إليها لا يظفر منها في ذلك المزدحَم العظيم الحافل بخلَّانها

وأصدقائها بمثل ما كان يظفر به منها في «البانيير»، فخلى بها ليلة السفر ساعة وحادثها حديثًا طويلًا انتهى بالاتفاق معها على أن تهجر حياتها الأولى، حياة المخالة والمعاشرة وتعيش في منزل يهيئه لها، ويقوم بنفقاتها فيه على أن تأذن له بالاختلاف إليها من حين إلى حين، ثم سَافَرَا في اليوم الثاني إلى باريس.

ومنذ ذلك اليوم تغيَّرت صورة حياتها عما كانت عليه من قبل، فأصبحت تعيش في قصرها الذي هيأه لها الدوق عيشًا بين العزلة والاختلاط، فلا تستقبل الناس فيه إلا قليلًا، ولا تمتزج مع الذين تستقبلهم الامتزاج كله، وربما مرت بها أيامٌ لا يراها الناس خارج قصرها إلا قليلًا، فإذا خرجت ركبت عربتها وحدها دون رفيق أو رفيقة، ومشت في طريقها تقرأ في كتاب أو صحيفة، فربما مر بها كثير ممن تعرفهم فلا تراهم، فإذا وقع نظرها على واحد منهم ابتسمت له ابتسامةً قصيرة موجزة، قلما يشعر بها أحد سواه، ثم استمرت أدراجها حتى تصل إلى منتزه «الشانزلزيه» فتنزل من عربتها وتمشي في الغابة على قدميها ساعة ثم تعود إلى قصرها، فإذا جاء الليل ذهبت إلى ملعب التمثيل وحدها، أو مع الرجل القائم بشأنها، فتقضي فيه أكثر وقتها ناظرةً إلى المسرح، لا يشغلها كثرة الناظرين إليها أو المتهافتين على مقصورتها عن تتبع فصول الرواية والاهتمام بوقعها حتى تنتهي.

فلم تمضِ عليها أيامٌ كثيرة حتى علم الناس جميعًا أن «مرغريت» قد استحالت حالها، وتغيرت صورة حياتها، وأنها قد قنعت بهذه الحياة الجديدة، حياة الهدوء والسكينة، والوحشة والانفراد، ورضيتها لنفسها، فلا سبيل إلى مغالبتها عليها، فقصرت عنها أطماعهم، وانقطعت منها آمالهم، وظلوا يتلمسون الأسباب لتلك الحالة الغريبة التي طرأت عليها، فذهبوا في شأنها المذاهب كلها إلا المذهب الصحيح منها، وهي أن تلك الحادثة المحزنة التي حدثت لابنة الدوق شبيهتها في صورتها ومرضها قد أثَّرت في نفسها تأثيرًا شديدًا، وصوَّرت لها الحياة بصورة غير صورتها الأولى، فأصبحت تعافُّ الرجال؛ لأنهم سبب سقوطها، وتستنكر سقوطها أكثر مما استنكرته من قبل؛ لأنه سبب مرضها، ولا تأسف على ما فاتها مما في أيدي الناس؛ لأنها تعيش من مال الدوق في نعمة لا يطمع طامعٌ في أكثر منها، وربما خطر بها أن حياتها مع هذا الشيخ الهرم الذي لا يطمع منها في أكثر من أن يراها تشبه حياة العذارى الطاهرات اللواتي ينعمن بنعمة الشرف في ظلال آبائهن، فأعجبها هذا الخيال ولذَّ لها، وكثيرًا ما بكت ذلك الشرف قبل اليوم وحنت إليه.

انقضت أيام الخريف وأقبلت أيام الشتاء، وسالت الأجواء بردًا وقُرًّا، فثار ما كان كامنًا من داء «مرغريت»، وعاد إليها نفثها وسعالها، فظلت تكابد من مرضها آلامًا جسامًا، لا تفارقها يومًا حتى تعاودها أيامًا، فإن ألمت بها لزمت سريرها لا تفارقه، وإن روَّحت عنها برزت إلى الخلاء في بكور الأيام وأصائلها تطلب الهواء الطلق والجو النقي، وربما ذهبت في بعض لياليها إلى ملعب التمثيل لتتفرج ما هي فيه، فتخلو بنفسها في مقصورتها ساعة أو ساعتين، ثم تعود إلى منزلها.

وكانت لا تزال ترى في المقصورة المجاورة لمقصورتها كلما ذهبت إلى الملعب فتًى في زي أبناء الأشراف وشمائلهم، لا يزال يخالسها النظر من حين إلى حين، فينظر إليها إن غضَّت عنه ويغضُّ عنها إن نظرت إليه، ولا يلتقي نظرها بنظره حتى يتلهب وجهه حمرةً ويرفضُّ جبينه عرقًا، كأنما جنى جناية لا مُقيل له منها، فلم تحفل به كثيرًا؛ لأنها لم ترَ في أمره شيئًا جديدًا، إلا أنها كانت تعجب لسكونه وجموده، طول إغضائه وإطراقه، ولتلك العَبرة من الحزن المنتشرة على وجهه، وكان أكثر ما يدهشها منه أو يعجبها أنه الفتى الوحيد الذي كان يبكي في ذلك المجتمع لمنظر المشاهد المحزنة التي تُمثَّل على مسرح التمثيل؛ لأنها تعلم أن الفتيان الفرحين المغتبطين بشبابهم وصحتهم لا يحفلون بمناظر الشقاء الحقيقية، فأحرى ألا يحفلوا بتمثيلها.

فإنها لخاليةٌ بنفسها في مقصورتها ذات ليلة — وكان الجو باردًا مقشعرًّا — إذ فاجأتها نوبة سعالٍ اشتدت عليها كثيرًا حتى كادت تسقط عن كرسيها ضعفًا ووهنًا، فشعرت بيدٍ تمسك يدها، فاعتمدت عليها دون أن تستطيع الالتفات إلى صاحبها حتى بلغت عربتها فركبتها، فشعرت بالراحة قليلًا، فالتفتت لتشكر لصاحب تلك اليد يده، فلم ترَ أمامها أحدًا، ورأت على بعد خطواتٍ منها إنسانًا منصرفًا فلم تتمكن من رؤيته، إلا أنها تخيلت صورته تخيُّلًا، فعجبت لأمره، ومضت في طريقها، فما وصلت إلى منزلها حتى شعرت برعدة الحمى تتمشى في أعضائها، فلزمت سريرها بضعة أيام لا تُفارقه حتى أبلت قليلًا، فقدَّمت إليها خادمتها بطاقات الزيارة التي تركها الفتيان الذين زاروها في أثناء مرضها تجمُّلًا وتَلَوُّمًا، فلم تقرأ واحدة منها.

ثم حدَّثتها الخادمة أن فتًى كان يأتي للسؤال عنها في كل يوم مرة أو مرتين، ولا يذكر اسمه، ولا يترك بطاقته، وأنه كان ينقبض انقباضًا شديدًا كلما أخبرته أنها لا تزال طريحة فراشها تشكو وتتألم، فاستوصفتها إياه، فوصفته لها، فلم تعرفه، وعجبت لأمره

كل العجب، وتمنَّت لو رأته فشكرت له هذا الإخلاص النادر، الذي لا عهد لها به في أحد من الناس.

وأمرت خادمتها أن تخبرها خبره إن جاء للسؤال عنها مرة أخرى، فلم يلبث أن جاء، وكانت «مرغريت» جالسة في شرفة المنزل المطلة على الطريق فرأته، فعرفت أنه ذلك الفتى الحزين الذي كانت تراه في المقصورة المجاورة لمقصورتها في ملعب التمثيل، وأنه صاحب تلك اليد التي امتدت لمعونتها ليلة النازلة التي نزلت بها هناك، فأشارت إلى خادمتها بالنزول إليه واستدعائه إليها، ففعلت، فاضطرب الفتى لهذه الدعوة اضطرابًا شديدًا حتى كاد يرفضها، ثم شعر بمكان «مرغريت» من الشرفة فتَلَوَّم ومشى وراء الخادمة، حتى صعدت به إلى غرفة سيدتها، فتركته وانصرفت.

فدخل عليها فحيَّاها ووجهه يرفضُّ عرقًا، ولسانه لا يكاد يبين، فمدت إليه يدها، فتناولها وقبَّلها قبلةً طويلة، عرفت «مرغريت» سرَّ ما أودعها من عواطف قلبه، وهي العالمة بأسرار القُبلات، ثم أذنته بالجلوس، فجلس، فأنشأت تسائله عن نفسه وعن قومه، وعن سبب اهتمامه بشأنها، وتبتسم له فيما بين ذلك ابتسامات تلاطفه بها، وتمسح عن فؤاده ما ألمَّ به من الروع.

فحدَّثها أنه غريبٌ عن «باريس»، وأنه وفد إليها منذ عشرين يومًا من بلدته «نيس» ليقضي فيها ثلاثة أشهر أذن له أبوه بها طلبًا لتغيير الهواء وترويح النفس، ثم يعود في نهايتها إلى وطنه، فسألته: «هل وجدت المقام حميدًا هنا؟»

فصمت هنيهة، ثم نظر إليها نظرة منكسرة، وقال: «لا يا سيدتي.»

قالت: «لماذا؟»

فحارت بين شفتيه كلمة لم يستطع أن ينطق بها، فعاد إلى صمته وإطراقه، فأعادت عليه سؤالها.

فقال لها: «هل تأذنين لي يا سيدتي أن أقول لك كل ما في نفسي؟»

فشعرت بما في نفسه قبل أن يقوله، وقالت له: «قل ما تشاء إلا أن تطارحني حبك وغرامك، فإنني امرأةٌ مريضةٌ لا أستطيع أن أحتمل الحياة وحدها خالصة لا مئونة فيها، فأحرى ألا أحتملها مثقلةً بالحب والغرام.»

فاصفرَّ وجهه اصفرارًا شديدًا، ومد يده إلى دمعة تترقرق في عينيه فمسحها، ثم قال لها: «ذلك ما يحزنني يا سيدتي ويبكيني وينغص عليَّ عيشي، منذ هبطت باريس حتى اليوم، فإنني رأيتك فأحببتك للنظرة الأولى، ثم سألت عنك فعرفت من أمرك كل شيء،

وعلمت أنك تعيشين منذ شهور عيشة لا مطمع فيها لطامع ولا أمل لآملٍ، فانقطع أملي منك، إلا أن حبي إياك لم ينقطع، ثم رأيتك بعد ذلك في ملعب التمثيل ورأيت هذا القناع الأصفر الذي نسجتْهُ يد المرض على وجهك الجميل، فاستحال حبي إياك رحمةً وشفقة، وأصبحت أبكي لمرضك أكثر مما أبكي لحبك، وأصبح كل ما أتمنى على الله في حياتي أن أراك بارئةً ناعمة، موفورًا لك حظك من سعادة العيش وهنائه، ثم لا أطمع بعد ذلك في شيء مما يطمع فيه المحبون المغرمون، فأنا أقف الساعة بين يديك لا لأطارحك الحب والغرام؛ بل لأسأل أن تأذني لي بالوقوف على بابك كلما جئتُهُ أسأل خادمتك عنك، ثم أمضي لسبيلي من حيث لا ترين وجهي، ولا تشعرين بمكاني.»

فسَرَتْ في أعضائها رعدة غير الرعدة التي تعرفها من الحمى، وخيِّل إليها أنها تسمع نغمةً في الحب غير التي كانت تسمعها قبل اليوم من أفواه الرجال، فنظرت إليه نظرةً لا يعلم تأويلها إلا الله تعالى، ثم قالت له: «إني آذن لك بذلك يا سيدي، وأشكره لك شكرًا جزيلًا، بل آذنك أن تزورني كلما شئت، على أن تَفِد إليَّ صديقًا مساعدًا، لا محبًّا مغرمًا، فإني إلى الأصدقاء المخلصين أحوج مني إلى المحبين المغرمين.»

ومدت إليه يدها، فعلم أنها قد أذنته بالانصراف، فقبَّلها وانصرف مسرورًا مغتبطًا، فأتبعته نظرها حتى غاب عنها، فسقطت على وسادة بجانبها، وقالت: «رحمتك اللهم، فإني أخشى أن أحبه!»

لقد أحبَّته من حيث لا تدري؛ فإن الخوف من الحب هو الحب نفسه، بل شعرت في حبه بسعادةٍ لم تشعر بمثلها من قبل، فأصبحت تستقبله كل يوم في منزلها، وتأنس به وبحديثه أنسًا كثيرًا، وتفضي إليه بذات نفسها إفضاء الصديق إلى صديقه، وتقصُّ عليه قصة ماضيها وحاضرها لا تكذبه شيئًا ولا تكتم عنه أمرًا، ثم ترامى بها الأمر، حتى أصبحت تشعر بالوحشة إن تخلف عن ميعاد زيارته بضع دقائق، ثم حدث أن انقطع عن زيارتها ثلاثة أيام لأمرٍ عرض له لن يتمكن من إخبارها به، فحزنت لانقطاعه حزنًا عظيمًا، وذهبت بها الوساوس والظنون كل مذهب، ثم ذكرت أن ذلك الحزن وهذا الوسواس ليس من شأنها قبل اليوم، فقلقت لذلك قلقًا شديدًا، وخفق قلبها خفقة الرعب والخوف، وعلمت أنها قد وقفت على حافة الهوة، ولم يبقَ إلا أن تتردى فيها، فسهرت ليلةً طويلة عالجت فيها من نوازع النفس وخوالجها ما عالجت، حتى أصبح الصباح وقد أضمرت في نفسها أمرًا.

جاء «أرمان» في صباح اليوم الرابع، فوجدها طريحة فراشها، وفي عينيها حمرة البكاء والسهر، فارتاع لمنظرها، وقال لها: «لعلك سهرتِ بالأمس كثيرًا يا سيدتي أو بكيتِ، فإني أرى في عينيك أثرَ واحدٍ منهما.»

قالت: «هما معًا يا أرمان.»

قال: «وهل حدث شيءٌ جديد؟»

قالت: «اجلس بجانبي قليلًا أيها الصديق أحدثك حديثًا قصيرًا، وربما كان آخر حديث بيني وبينك، ثم لا أراك بعد ذلك ولا تراني.»

فذعر ذعرًا شديدًا، وداخله من الرعب والهول ما ملك عليه عقله ولسانه، فلم يستطع أن يقول شيئًا، وسقط بجانبها واهيًا متضعضعًا، وظل ينظر إلى وجهها نظر المتهم إلى وجه قاضيه ساعة نطقة بالحكم.

فأقبلت عليه تحدِّثه وتقول: «عرفتك يا «أرمان» فعرفت فيك الرجل الكريم الذي أحبَّني لنفسي أكثر مما أحبني لنفسه، والصديق الوفي الذي امتزجت في قلبه عاطفة الحب بعاطفة الرحمة والحنان، فأوى إليَّ مريضةً حينما جفاني الناس لمرضي، وعاش معي بلا أملٍ حينما انقطع الناس عني لانقطاع أملهم مني، فأضمرت لك في قلبي من الحب والاحترام ما لم أضمره لأحد سواك، وسعدتُ بك سعادةً لم أشعر بمثلها في يوم من أيام حياتي.

ولكن الله الذي كتب لي الشقاء في لوح مقاديره من ضجعة المهد إلى رقدة اللحد لم يشأ أن يمتعني طويلًا بهذه السعادة، وأبى إلا أن يسلبنيها وشيكًا، فقد أصبحتُ أشعر منذ أيام أن تلك العاطفة الشريفة المقدسة التي كنت أستمد منها سعادتي وهنائي قد أخذت تستحيل في أعماق قلبي إلى عاطفة أخرى غيرها لا أريدها لنفسي، ولا أرى إلا أنها ستكون سبب شقائي وبلائي، فخادعت نفسي عنها حينًا، أكذِّبها مرة وأصدِّقها أخرى، حتى كان ما كان من انقطاعك عني تلك الأيام الثلاثة، فشعرت لغيابك بحزنٍ أقلقني وأمضَّني، وملك عليَّ جميع عواطفي ومشاعري، ولو شئت أن أقول، لقلت إنه أبكاني كثيرًا، وأسهرني طويلًا.

فعلمتُ — وا أسفاه — أنني قد أصبحت عاشقة، وأن هذا الذي يختلج في قلبي، ويقيمني ويقعدني، إنما هو الحب والغرام، فقضيت ليلة الأمس كلها أفكر في طريق الخلاص من هذه النكبة العظمى التي نزلت بي، فلم أجد أحدًا يخلصني منها سواك، فأنا أسألك يا «أرمان» باسم الصداقة والود الذي تعاقدنا عليه بالأمس، بل باسم الدموع

التي طالما كنت تسكبها رحمة بي وإشفاقًا عليَّ، أن تنقطع عن زيارتي منذ اليوم، وأن تسافر إلى أهلك الليلة إن استطعت، ثم لا تَعُدْ إليَّ بعد ذلك، فأحمل نفسي على الصبر عنك حتى يمنَّ الله عليَّ براحة اليأس منك!»

ثم نظرتْ إليه لترى ما يقول، فإذا هو جامد مصفر، كأن وجهه وجه تمثالٍ منحوت، وإذا عيناه شاخصتان إليها شخوص العين القائمة التي تنظر إلى الشيء ولا تراه، وبعد لأيٍ ما استطاع أن يحرك شفتيه، ويقول لها بصوت خافت كصوت الضمير: «وما يخيفك من الحب يا مرغريت؟»

قالت: «يخيفني منه العقاب الأليم الذي أتوقع أن يعاقبني به الله على ما اقترفت من الذنوب والآثام في فاتحة حياتي، فقد كتب الله لنا — معشر النساء الساقطات — في لوح مقاديره أن لا نزال نعبث بقلوب الرجال وعقولهم ونبتليهم بصنوف العذاب وأنواع الآلام، حتى يغضب الله لهم ويغار عليهم، فيبتلينا بحبٍّ نحمل فيه من العذاب جميع ما حملناه للناس من قبل، ونشقى فيه شقاءً لا ينتهي إلا بانتهاء حياتنا، فنموت بين يدي أنفسنا مهملاتٍ مُغْفَلاتٍ، لا ينعانا ناعٍ، ولا يبكي علينا باكٍ، فهذا الذي أخافه وأخشاه، وأحب أن يسبق إليَّ أجلي قبل أن أراه.

أنا لا أتهمك بالخيانة والغدر يا «أرمان»، فأنت أجلُّ من ذلك عندي، ولكني أعلم أنك باقٍ في هذا البلد إلى أجلٍ، فإذا انقضى الأجل سافرت إلى أهلك سفرًا لا تملك بعده العودة إليَّ، فإن أبيْتَ إلا البقاء بجانبي حال أهلك بينك وبين ذلك؛ لأنهم قومٌ شرفاء يضنون بك وبشرفك أن تلوثهما امرأة مومس بعارها وشَنَارِهَا، فلا تجد لك بدًّا من الخضوع لهم والنزول على حكمهم، وهنالك أقف موقف الحيرة واللوعة أطلب السبيل إليك فلا أجدك، والسلو عنك فلا أستطيعه، وربما حاولت بعد ذلك العودة إلى كنف ذلك الشيخ الكريم الذي أحسن إليَّ إحسانًا كبيرًا؛ فطردني من بين يديه عقابًا لي على خيانة عهده وكفر نعمته، فلا أجد لي بدًّا من الرجوع إلى حياتي الأولى — حياة الشرور والآثام، والهموم والآلام — التي أبغضها بغض الأرض للدم، وهنالك العذاب الدائم والشقاء الطويل!

إني أعلم يا «أرمان» أنك تحبني حبًّا جمًّا، وأنك ستكابد في ابتعادك عني عذابًا كثيرًا، ولكني أعلم أن لك قلبًا شريفًا يحتمل العذاب في سبيل الرحمة، فاحتمل هذا العذاب من أجلي، فإنك أقدر مني على احتمال الآلام والأوجاع، وسأدعو الله تعالى ليلي ونهاري أن يمنحني الصبر عنك، ويرزقني راحة النفس وسكونها من بعدك، وأن يمنحك من ذلك مثل ما يمنحني، فلعله يرحمنا جميعًا.»

فلم يكن له جواب على كلمتها هذه سوى أن نهض من مكانه متضعضعًا متهالكًا ومشى إلى باب القاعة يسوق نفسه سوقًا حتى بلغه، فوقف على عتبته، والتفت إلى «مرغريت»، وألقى عليها تلك النظرة التي يلقيها المحتضر على أهله في آخر لحظات حياته، وقال لها: «الوداع يا مرغريت!» ومضى.

فما غاب شخصه عن عينيها حتى نهضت من فراشها هائمةً مختبلة، واندفعت إلى الباب تريد اللحاق به! ثم تراجعت، ثم حاولت ذلك مرة أخرى، فأدركها رشدها وأَنَاتُهَا، فعادت إلى فراشها تبكي وتنتحب، وتعول إعوالًا شديدًا، وتدور في أنحاء الغرفة دوران الثاكلة المفجوعة، وهي تصيح: «أرجعوه إليَّ، لا أستطيع فراقه، سأموت من بعده.»

وإنها لكذلك إذ سمعت صرخة عظمى آتية من ناحية الحديقة، فخرجت تعدو إلى حيث سمعت الصوت حتى بلغت باب المنزل، فرأت «أرمان» ساقطًا تحت عتبته مغشيًّا عليه، فرفعت طرفها إلى السماء وقالت: «ليكن ما أراد الله.» ثم ألقت نفسها عليه ولثمت ثغره لثمة هي أول لثمة ذاقت فيها لذة العيش في حياتها، فشعر بها «أرمان» فاستفاق، وضمها إلى صدره ضمةً لو مات على أثرها ما بكى على شيءٍ من نعيم الدنيا وهنائها!

انقضى الشتاء فانقضى بانقضائه شقاء «مرغريت» وعناؤها، فقد أبلت من مرضها، وأصبحت سعيدة بحبها، فلم يبقَ بين يديها إلا أن تبلغ من تلك السعادة نهايتها، فاقترحت على «أرمان» أن يتركا «باريس» وضوضاءها، ومزدحم الحياة فيها إلى مصيف يختارانه لنفسهما في بعض الأماكن الخالية، فقبل مقترحها وسافرا معًا يفتشان عن المكان الذي يريدان حتى بلغا قرية «بوجيفال»، وهي ضاحية من ضواحي باريس على بعد ساعتين منها، فوجدا في بعض أرباضها منزلًا صغيرًا منفردًا واقعًا على رأس هضبة عالية في سفح جبل مخضر، تجري من تحته بحيرةٌ صافية بديعة كأنما بناه بانيه لهما، فاكترياه، ونقلت «مرغريت» إليه من منزلها في باريس بعض ما يحتاجان إليه من أثاث ومتاع.

ثم عاشا فيه بعد ذلك عيشًا ناعمًا هنيئًا، لا تضطرب في سمائه غيمة، ولا تمرُّ بصفحته غَبْرة، ولا يكدر عليهما مكدِّرٌ من خواطر الشقاء ووساوسه، فكانا يقضيان نهارهما صاعدَيْن إلى قمة الجبل أو منحدرَيْن إلى سفحه، أو راكبَيْن زورقًا صغيرًا يسبح بهما على صفحة البحيرة جيئة وذهوبًا، أو جالسَيْن تحت شجرةٍ فرعاء تُظللهما من لفحات الهجير وتضمهما إليها كما تضم ثمارها، أو مضطجِعَيْن على بساطٍ من العشب الممتد في تلك البطحاء الفسيحة يتناجيان ويلهوان بمنظر الجمال الماثل في الشاطئ،

والأمواه والأخاديد، والوديان والغابات والحرجات، والكهوف والأغوار، والغيوم والسحب والأضواء في تشكلها وتلوُّنها، والظلال في تحوُّلها وانتقالها، وفي رءوس الجبال اللاصقة بجلدة السماء كأنها بعض سحبها، وفي قطع الصخور المبعثرة على جوانب الغدران كأنها بعض أمواجها، وفي تلك المعركة التي تدور في كل يوم مرتين بين جيشي الأنوار والظلمات، فينتظر في صدر النهار أولهما، ثم يُدَال في آخره لثانيهما، حتى إذا جاء الليل، عادا إلى منزلهما فنعما فيه بألوان النعيم وضروبه، ورشفا من كل ثغرٍ من ثغور السعادة رشفةً تسري حلاوتها في قلبهما حتى تصيب صميمه.

مر بهما على ذلك عامٌ كامل، هو كل ما استطاعا أن يختلساه من يد الدهر في غفلته، ثم انتبه لهما بعد ذلك، وويلٌ للسعداء من انتباهه بعد إغفائه! فقد نضب أو أوشك أن يَنْضُب ما كان في يد «أرمان» من المال، وكان في يده الكثير منه، فكتب إلى أبيه يطلب إليه أن يبعث إليه بما يستعين به على البقاء في باريس مدة أخرى، زاعمًا أنه لا يزال مريضًا متألمًا لا يستطيع السفر، وكذلك كان يفعل من حينٍ إلى حين، فلم يأتِهِ الرد، فأقلقه ذلك قلقًا شديدًا، وظل يختلف إلى المدينة في كل يوم، يسأل في فندق «تورين» الذي كان ينزل به قبل اتصاله بمرغريت عن الكتاب الذي ينتظره فلا يجده، فيعود حزينًا منقبضًا، حتى إذا وصل إلى بوجيفال، ورأى «مرغريت» بين يديه، تَطَلَّقَ وتبسَّم كأنه لا يضمر في نفسه همًّا قاتلًا.

ولكن عين «مرغريت» أقدر من أن يُعجزها النفاذ إلى أعماق قلبه، فاكتنهت سره فكاشفته به، وقالت: «لا يحزنك شأن المال يا «أرمان»، فإن عندي منه ما يكفينا العيش معًا سنين طوالًا.»

ولم تكن صادقةً فيما تقول؛ لأن الدوق قاطعها ومنع عنها رِفْدَهُ مذ عرف قصتها مع «أرمان»، وعلم أنها خانته وخانت عهده، بل كانت مدينةً بمالٍ كثير لبعض تجار الجواهر والثياب، بل أصبح دائنوها يتقاضونها ديونهم بعدما علموا أن الدوق قاطعها ونفض يده منها.

ولكنها خاطرت بكلمتها مخاطرةً لم تفكر في عاقبتها، فأكبر «أرمان» ذلك وأعظمه، وأَنِفَ منه أنفةً شديدةً، وأبى أن يعيش معها بمالٍ غير ماله، وعزم أن يسافر إلى «نيس» ليأتي منها بالمال الذي يريده، فأزعجها عزمه هذا إزعاجًا شديدًا، وخافت عاقبته، فجثت بين يديه تستعطفه وتسترحمه، وتبذل في ضراعتها ورجائها في سبيل بقائه أكثر مما بذلت قبل اليوم في سبيل رحيله، حتى أذعن واستقاد، ورضي بالتي لم يكن يرضى

بمثلها لولا لهفة الحب وضراعة الدموع، وقد أضمر في نفسه أن يتنازل لها عن نصيبه في الميراث الذي ورثه من أمه مكافأةً لها ووفاءً بحقها، فلم يكن لمرغريت بعد ذلك بُدٌّ من أن تمد يدها إلى جواهرها وذخائرها، فأنشأت تبيع القطعة بعد القطعة لتسد بعض دينها، وتقوم بنفقة بيتها، من حيث لا يعلم «أرمان»، واستمرا على ذلك بضعة أشهرٍ، حتى دخل عليهما في يوم من الأيام في ساعات أنسهما وصفائهما خادم فندق «تورين» الذي كان ينزل به «أرمان» في باريس، وقال له إن والده قد وصل الساعة إلى الفندق، وإنه ينتظره هناك.

قال «دوفال» لِوَلَدِهِ: «لقد كذبت عليَّ كثيرًا يا «أرمان»، وما كنتَ قبل اليوم كذابًا ولا خادعًا، ورضيتَ لنفسك بحياةٍ كنتَ أضنَّ الناس بنفسك على مثلها من قبل، ومزقتَ بيدك ذلك القناع الجميل من الحياء الذي لا يزال مسبلًا على وجهك، وأصبحت تتبذل في العيش مع امرأة عاهرةٍ، كل ما لها من الشأن عند نفسها وعند الناس جميعًا أنها نفايةٌ من نفايات الرجال، وفضلةٌ من فضلات الفسَّاق، وفتات المائدة العامة التي يجلس عليها الناس جميعًا صباحهم ومساءهم. فحسبك هذا، وقم الساعة لتعدَّ نفسك للسفر معي إلى «نيس»، فلستُ بتاركك بعد اليوم في هذا البلد ساعة واحدة.»

فرفع «أرمان» رأسه إلى أبيه وقال له بصوت هادئ مطمئن: «لا أستطيع يا أبتاه!»

فنظر إليه أبوه نظرة شزراء، وقال له: «وتلك سيئةٌ أخرى، فقد أصبحتَ لا تعبأ بي، ولا تبالي بمخالفة أمري من أجل امرأةٍ ساقطة، لا شأن لها معك إلا أن تعبث بعقلك، وتسلبك مالك وشرفك، وتفسد عليك حاضرك ومستقبلك.»

قال: «لا يا أبتاه، إنها ليست بعابثةٍ ولا خادعة، ولكنها تحبني حبًّا جمًّا لم يحبه أحدٌ من قبلها أحدًا، وأحسب أني إن فارقتُها قتلتُها، وجنيت عليها جناية لا يُفارقني الندم عليها حتى الموت.»

قال: «ذلك ما يَخْدَعُ به أمثالُها أمثالَك، فليس للنساء العاهرات قلوبٌ يحببن بها، بل لهن ألسنٌ يختلن بها الرجال ويسبلنها حُجُبًا بين بعضهم وبعض، حتى يظن كل واحد منهم أنه الأثير عندها، وصاحب الحظوة لديها من دون أصحابه جميعًا.»

قال: «ربما كان ذلك شأنها قبل اليوم، أما اليوم فهي لا تحب أحدًا غيري، بل لا تعرف أحدًا سواي، فهي تعيش عيشةً تشبه عيشة النساء الشريفات، بل أشرف من عيشة الكثيرات منهن؛ لأن الخليلة التي تخلص لخليلها أشرف من الزوجة التي تخون زوجها، وأخشى إن فارقتها أن تثور في نفسها ثورة اليأس فتردها إلى تلك الحياة الأولى، حياة الشر والفساد، والشقاء والعذاب، بعدما استنقذت نفسها!»

قال: «وهل ترى أن وظيفة الرجل الشريف في هذه الحياة إصلاح النساء الفاسدات؟»

قال: «ذلك خير له من أن تكون وظيفة إفسادهن؛ فإن الأشراف في هذا العصر يفخرون بإفساد النساء الصالحات، واستدراجهن إلى مواطن الفسق والفجور، وإصلاح المرأة الفاسدة أدنى إلى الشرف من إفساد المرأة الصالحة.»

قال: «لقد أصبحت كثير الرحمة يا أرمان!»

قال: «لِمَ لا أرحم فتاةً مريضةً مسكينةً ليس لها في الناس من يعولها من ذي قرابةٍ أو ذي رحم، وقد نزل داؤها من صدرها منزلة لا يبرحها ولا يتحلل عنها، إلا أن يهدأ عنها حينًا ويستيقظ أحيانًا، فهي تكابد الألم مرةً، والخوف من الألم أخرى؟ ولا عزاء لها في حالتيها إلا هذه السعادة التي تتوهمها في الحب، وترى أنها ناعمة بها، فإن فقدتها فقدت كل شيءٍ في الحياة، وعظم حزنها وبؤسها، وثقلت وطأة الداء عليها حتى كادت تأتي على البقية الباقية من حياتها، فدعني معها يا أبتاه عامًا آخر أو عامين أهوِّن عليها فيهما شقاءها، فربما كان ذلك آخر ما قُدِّر لها أن تقضيه من أيامها في هذا العالم، ثم أعود بعد ذلك إليك هادئ القلب، ساكن الضمير، راضيًا عن نفسي وعن عملي، أبكيها بدموع الحزن لا بدموع الندم، ويُهوِّن وجدي عليها كلما ذكرتها أنني لم أَخُنْهَا ولم أغدر بعهدها.»

فأطرق «دوفال» هنيهة كأنما يعالج في نفسه همًّا معتلجًا، ثم رفع رأسه، ونظر إلى ولده نظرةً تشبه نظرة العطف والرحمة، وقال له: «لا أستطيع أن أسافر بدونك يا بني، فحسبي ما كابدتُ من الألم لفراقك قبل اليوم، وقد تركتُ أختك ورائي تندبك وتبكي عليك صباحها ومساءها، وتحن إلى لقائك حنين الظامئ إلى الوُرُود، واعلم أن جميع ما تعتذر به عن نفسك في هذا الشأن لا يغني عنك ولا عني شيئًا يوم يقول الناس كلمتهم التي لا بد أن يقولوها غدًا، وربما قال كثير منهم قبل اليوم إن «أرمان دوفال» سلالة آل تاليراند يعيش مع امرأة مومس في بيت واحد! فَعُدْ إلى نفسك يا بني واستلهم الله الرشد يلهمك، ولا تجعل لهواك سبيلًا على عقلك، ودع هذه الحياة الساقطة التي يحياها من ليست له همةٌ مثل همَّتك، ولا مجد ولا بيت مثل مجدك وبيتك، وإني تاركك الآن وحدك وذاهبٌ عنك لبعض شأني لتخلو بنفسك ساعة تسترد فيها ما عَزَبَ عنك من صوابك، ثم أعود إليك بعد قليل لأسمع منك الكلمة التي أرجو أن تكون شفاء نفسي ورواء غُلَّتي.»

ثم تركه ونزل، فمشى إلى قهوة قريبة من الفندق فكتب فيها لبعض الناس كتابًا خاصًّا، ثم طاف ببعض أصدقائه الذين يعرفهم في باريس، فزارهم زيارة طويلة، فلم

يعد إلى الفندق حتى أظل الليل، فرأى «أرمان» لا يزال في مكانه، فسأله ماذا رأى، فلم يجبه إلا بدموعه تنحدر على خديه تحدُّر القطر على أوراق الزهر، وجثا بين يديه يستعطفه ويسترحمه ويكشف له من خبيئة نفسه ما كان يكتمه من قبل، قال: «والله يا أبتِ لو علمتُ أني أستطيع الحياة بدونها لفارقتها بِرًّا بك وإيثارًا لطاعتك، ولكني أعلم أني إن فعلت فقد وضعت أمري في موضع الغَرَر، وخاطرت بعقلي أو بحياتي مخاطرةً لا أعلم ماذا يكون حظي فيها، ولا أحسبه إلا أسوأ الحظين، وأنحس النجمين، ولو أن أحدًا من قبلي استطاع أن يدفع هواه عن قلبه أو يمحو ما قُدِّر له في صحيفة قضائه من شقاء الحب وبلائه لسلكت سبيله التي سلكها، ولكنه بلاءٌ بُليت به لِحَيْنٍ أُريد لي، فلا رأي لي في ردِّه، ولا حيلة لي في اتقائه، وقد نزلت هذه الفتاة من نفسي منزلةً هي منزلة الحياة من الجسم، والغيث من التربة القاحلة، فإن كنتَ لا بد آخذي فخذ معك جسمًا هامدًا لا حراك به، ونبتة ذاوية لا حياة فيها!»

فوضع أبوه يده على عاتقه، وقال له: «قم الآن يا بني واذهب لشأنك، وعد إليَّ صباح الغد لأتمم حديثي معك، وأرجو أن تكون في غدك خيرًا منك في أمسك.»

فخرج محزونًا مكتئبًا يمشي مشية الذاهل المشدوه، لا يرى ما أمامه ولا يشعر بما حوله حتى رأى عربةً، فركبها إلى «بوجيفال» حتى بلغها بعد هدأة من الليل، فلم يَرَ «مرغريت» في شرفة البيت تنتظره كعادتها، فدخل عليها غرفتها فرآها مكبةً على منضدة بين يديها كأنما هي نائمة أو ذاهلة، فشعرت به عند دخوله، فنهضت مذعورة متلهفة، فخُيِّل إليه عند نهوضها أنه لمح في يدها رسالة تضم عليها أصابعها، فظنها بعض تلك الرسائل التي كان يرسلها إليها المركيز «جان فيليب» من حين إلى حين، وهو فتى من أبناء الأشراف الأثرياء كان يحبها في عهدها الأول حبًّا شديدًا، وينفق عليها أموالًا طائلة، فلما انقطعت عنه لم ينقطع منها أمله، فظل يرسل إليها رسائل كثيرة يعرض فيه حبه وماله، ويُمنِّيها الأماني الحسان في عودتها إليه، واتصال حياتها بحياته، فكانت تمزقها عند اطلاعها عليها أو على عنوانها.

فلم يحفل «أرمان» بذلك ومشى إليها فقبَّلها، فقالت له: «ماذا يا أرمان؟»

قال: «أرادني أبي على السفر معه فأبيتُ، وبكيت بين يديه كثيرًا فلم أنل منه منالًا، وقد أمرني بالعودة إليه غدًا ولا أريد أن أفعل؛ لأني لا أحسب حظي منه في الغد خيرًا منه اليوم، وقد أصبحتْ نفسي تحدثني بعصيانه، والبقاء هنا على الرغم منه؛ لأني أعلم أني قد تجاوزت السن التي يحتاج فيها الأبناء إلى إرشاد الآباء، ولأني لا أعرف أحدًا بين الناس يستطيع أن يرسم لي خطة سعادتي كما أرسمها لنفسي.»

ثم أنشأ يقص عليها قصته مع أبيه حتى أتمها، ونظر إليها فإذا هي مطرقةٌ صامتة، وإذا وجهها أصفر مربدٌ كأنما قد نفض الموت عليه غباره! فقال: «ما بالك يا مرغريت؟»

قالت: «أشعر بألمٍ شديد في رأسي وأريد الذهاب إلى مخدعي.»

فأخذ بيدها إليه، وجرَّعها بضع قطراتٍ من الدواء، فاستفاقت قليلًا، ثم نامت في مخدعها نومًا مشردًا مذعورًا، تتخلله أناتٌ طويلةٌ وأحلام مزعجة، حتى أصبح الصباح، فقالت له: «أرى لك يا «أرمان» أن تعود إلى أبيك كما أمرك، وأن تعاود استرحامه واستعطافه لعلك بالغٌ منه اليوم ما عجزت عنه بالأمس، إني لا أكون راضيةً عن نفسي، ولا هانئةً بحياتي إن لم يكن أبوك راضيًا عنك.»

ولم تَزَل به حتى أذعن لها وقام إلى ثيابه فارتداها، ثم مشى إليها وضمها إلى صدره ضمة شديدة، كأنما يضنُّ بها أن ينتزعها من ذراعيه منتزِعٌ، ثم قبَّلها وقال لها: «إلى المساء يا مرغريت.» فلم ترد عليه تحيته حتى أبعد عنها، فقالت بينها وبين نفسها: «أرجو أن يكون كذلك.» وتهافتت على كرسي بين يديها باكية منتحبة.

ولم يزل «أرمان» سائرًا في سبيله حتى وصل إلى «باريس»، فذهب إلى فندق «تورين» فلم يجد أباه هناك، ووجد رسالة تركها له قبل ذهابه يأمره فيها أن ينتظره حتى يعود، فلبث ينتظره وقتًا طويلًا حتى عاد بعد منتصف النهار، وقد رقَّت قليلًا تلك الغمامة السوداء التي كانت تلبس وجهه بالأمس، فتقدم نحوه «أرمان» فحياه، فقال له: «لقد فكرتُ ليلة أمس في أمرك كثيرًا يا بني فرأيت أني قد قسوت عليك وغلوت في أمرك غلوًّا كبيرًا، ونظرت إلى مسألتك بعين أقصر من التي كان يجب عليَّ أن أنظر إليها، فإن للشباب شأنًا غير شأن الكهولة والشيخوخة، وحالًا خاصةً به، لا يخرج عن حكمها شريفٌ ولا وضيع، ولا يختلف فيها سوقةٌ عن ملكٍ، فلك أن تبقى يا بني كما تشاء، وأن تعاشر الفتاة التي تحبها كما تريد، على أن تعدني بالعودة إليَّ في اليوم الذي تنقطع فيه الصلة بينك وبينها انقطاع حياةٍ أو موتٍ، فإني إن أمنتُ عليك شرها فلا آمن عليك شر غيرها من النساء.»

فاستُطِيرَ «أرمان» فرحًا وسرورًا، وأهوى على يد أبيه يقبِّلها ويبللها بدموعه، ويقول: «أعدك بذلك يا أبتاه وعدًا لا أُخالفه، ولا أَخِيسُ به، ولك حكمك ما تشاء إن رأيتني بعد اليوم كاذبًا أو حانثًا.»

ثم نهض يريد الذهاب، فقال له: «أين تريد؟»

قال: «أريد الذهاب إلى «مرغريت» لأبشرها بهذا النبأ وأمسح عن فؤادها ما ألم به من الروع منذ الأمس.» فانتفض أبوه انتفاضة خفيفة لم يشعر بها «أرمان»، ثم أدار وجهه ليغالب دمعةً كانت تترقرق في عينيه.

ثم التفت إليه وقال: «ابقَ معي يا بني فربما سافرتُ غدًا، ولا أعلم بعد ذلك متى أراك.»

فبقي معه اليوم كله حتى جاء الليل، فاستأذنه في الذهاب إلى «بوجيفال» فأذن له، فحياه وخرج، فأتبعه نظره حتى غاب عن عينيه، فانحدرت من جفنه تلك الدمعة التي كان يحبسها من قبل، وقال: «وا رحمتاه لك أيها الولد المسكين!»

حمل «أرمان» بين جنبيه آماله وآمال «مرغريت» وسعادتهما التي يرجوانها في مستقبل حياتهما، وطار بها إليها ليقاسمها إياها حتى دنا من «بوجيفال»، فأدهشه أن رأى البيت مظلمًا ساكنًا لا يضطرب فيه شعاع، ولا يتراءى فيه ظل، فمشى إلى الباب فرآه مُرْتَجًا، فوضع أذنه على خَصَاصِهِ، فلم يسمع حركة، فأخذ يقرعه قرعًا شديدًا، ويهتف باسم «مرغريت» مرة واسم «برودنس» أخرى، فلم يُجِبْهُ أحد، فقال في نفسه: «لعلها ذهبت إلى بيتها في «باريس» لبعض شأنها واستصحبت خادمتها، ولا بد أن تعود الآن.»

فجلس على صخرة أمام باب المنزل ينتظرها حتى مضت هدأةٌ من الليل فلم تعد، فحدَّثته نفسه بالعودة إلى «باريس» للبحث عنها في مظانِّ وجودها، ثم منعه من ذلك خوفه أن يسلك في ذهابه طريقًا غير الطريق التي تسلكها في عودتها، فاستمر في مكانه يقعد مرةً ويقوم أخرى، ويقف حينًا ويتمشى أحيانًا، ويحدث نفسه بكل حديث يمر بخاطر القَلِق المرتاع، إلا حديث خيانتها وغدرها.

ولم يزل في حيرته واضطرابه حتى رأى جَذْوَةَ الفجر تدب في فحمة الظلام، فساء ظنه، وانتشرت عليه وساوسه وأوهامه، وقال في نفسه: «ما لمرغريت بدٌّ من شأن، ولا بد لي من المسير إليها والنظر في الشأن الذي شغلها!» وكان القلق والسهر قد أخذا مأخذهما من جسمه ونفسه من حيث لا يشعر، فمشى في طريقه إلى «باريس» يترنح ترنح الشارب الثمل حتى وصل إلى منزل «مرغريت» وقد علا صدر النهار.

فرأى حارس المنزل قد استيقظ من نومه ووقف بفأسه على شجرة الحديقة يشذب أغصانها، فسأله عن مرغريت، فقال: «إنها حضرت هنا بالأمس في منصرف النهار ووراءها خادمتها تحمل حقيبةً كبيرة فصعدت إلى المنزل فلبثت فيه ساعةً ثم نزلت، وقد لبست ثوبًا من أثواب الولائم، فأعطتني كتابًا، وقالت لي إذا جاء هنا المسيو «أرمان» للسؤال عني فأعطه إياه، ثم ركبت عربتها هي وخادمتها وانصرفت.»

قال: «ألا تعلم أين ذهبت؟»

قال: «أحسب أني سمعتها تقول للحوذي عند ركوبها: إلى منزل المركيز جان فيليب.»

فجمد «أرمان» في مكانه جمود الصنم، واستحال لونه إلى صفرة الموت، ومر بخاطره مرور البرق ذلك الكتاب الذي رآه في يدها بعد عودته إليها من مقابلة أبيه، فتركه الحارس مكانه وذهب إلى غرفته، وعاد إليه بالكتاب، فتناوله منه بيد مرتجفة ونشره وأمرَّ نظره عليه إمرارًا، فأحاط بما فيه للنظرة الأولى، فارتعد جسمه ارتعادًا شديدًا، وتراجع خطوة أو خطوتين إلى باب القصر، فأسند ظهره إليه وأعاد قراءته، فإذا هو مشتملٌ على هذه الكلمات:

> هذا آخر ما بيني وبينك يا «أرمان»، فلا تحدث نفسك بمعاودة الاتصال بي، ولا تسألني عن السبب في ذلك، فلا سبب عندي إلا أني هكذا أردت لنفسي، والسلام.

فعلق نظره بالكتاب ساعة لا يرفع طرفه عنه، ولا يقرأ منه حرفًا، كأنما هو تمثال من تماثيل الحديقة، وكان الحارس قد عاد إلى شجرته يشذب أغصانها، ويتغنَّى في صعوده إليها وانحداره عنها بقطعة من الشعر الغرامي يعجبه لحنها وإن كان لا يفهم معناها.

فإنه لكذلك إذ سمع صوت جسمٍ ثقيلٍ قد سقط على الأرض، فرمى بفأسه وهرع إلى ناحية الصوت، فرأى «أرمان» صريعًا معفرًا تحت عتبة الباب، ففزع فزعًا شديدًا وظنها الصرعة الكبرى، فأهوى بأذنه إلى صدره، فسمع ما بقي من دقات قلبه، فاطمأن قلبًا، وعمد إلى جرَّةٍ بين يديه فأخذ ينضح بمائها وجهه، ويدِّلك براحة يده صدره وصدغيه حتى استفاق بعد قليل، ففتح عينيه فرأى الحارس جالسًا بجانبه، ورأى الكتاب لا يزال في يده، فدار بعينيه حول نفسه، فمرت بخاطره في الحال ذكرى مصرعه القديم في هذا المكان عينه منذ خمسة عشر شهرًا، يوم ألقت «مرغريت» بنفسها عليه ورسمت على ثغره أول قبلة من قبلات الحب، فهاجته تلك الذكرى وصاح: «ما أبعد اليوم من الأمس!»

وأنشأ يبكي بكاء الطفل الذي حيل بينه وبين ثدي أمه، حتى بكى الحارس لبكائه، وأقبل عليه يعزيه عن مصابه، ويهونه عليه حتى هدأ قليلًا، فأمره أن يستدعي له عربة ففعل، فقام يتوكأ على يد الحارس حتى بلغها فركب وقال للسائق: «إلى فندق تورين.»

فسارت به العربة إليه، حتى إذا لم يبقَ بينه وبينه إلا منعطف واحد مرت بجانبه عربةٌ فخمة مرور البرق الخاطف، تحمل رجلًا وامرأة لم يتبينهما للنظرة الأولى، ثم راجع صورتهما في خياله فإذا هما «جان فيليب ومرغريت»، وكانت مركبته قد وصلت به إلى الفندق، فدخل على أبيه هائمًا مختبلًا، فقال: «ما دهاك يا بني؟!»

قال: «قد خانتني يا أبتاه!»

قال: «ذلك ما أنذرتك به من قبل يا بني.»

ثم انقضى النهار، وجاء الليل فقضاه «أرمان» ساهرًا في مخدعه يراجع فهرس حياته مع «مرغريت» صفحة صفحة، ويستعرض في نفسه جميع أطوارها وشئونها، فلم تبقَ حركةٌ من حركاتها، ولا كلمةٌ من كلماتها، ولا صورةٌ من صور أعمالها، كان يراها بالأمس حسنةً من حسنات الإخلاص والوفاء، إلا رآها اليوم سيئةً من سيئات الخديعة والمكر، حتى وصل في مراجعته إلى الأمس واليوم الذي قبله.

فذكر عدم انتظارها إياه في شرفة البيت كعادتها يوم عاد إليها من مقابلة أبيه، وشدة احتفاظها بكتاب المركيز في يدها عندما دخل عليها غرفتها وضنها به ضنًّا شديدًا، ولم تكن تفعل ذلك من قبل، وإعراضها عن التبسط معه في الحديث بعدما قص عليها قصته مع أبيه، وزعمها أنها مريضةٌ خائرة لا تستطيع البقاء معه، وإلحاحها عليه في صباح اليوم الثاني إلحاحًا شديدًا في العودة إلى مقابلة أبيه واستعطافه، وقولها إنها لا تكون راضية عن نفسها ولا هانئة بعيشها إن لم يكن أبوه راضيًا عنه، فاستنتج من هذا كله أنها مذ شعرت بفراغ يده من المال وأن أباه إما يحول بينه وبينها وإما أن يقتِّر عليه الرزق تقتيرًا، ملَّته واجْتَوَتْهُ، وفكَّرت في سبيل الخلاص منه، ولم تزل تنتظر ما يأتيها به القدر حتى أتاها بكتاب المركيز، فكان هو طريق خلاصها.

ولم يَزَل هائمًا ما شاء الله أن يهيم في تصوراته وأوهامه حتى غلبته عيناه، فهجع قليلًا، ثم استيقظ في الصباح فدخل على أبيه في مخدعه، وقال له: «لي عندك أمنيةٌ يا أبتاه لا أريد غيرها، وأريد أن أبتاعها منك بخضوعي لك ونزولي على حكمك أبد الدهر فيما سرَّني أو ساءني، فهل لك أن تُبلغنيها؟»

قال: «وما هي؟»

قال: «أريد أن تعطيني الساعة خمسة عشر ألف فرنك.»

قال: «وما تريد منها؟»

قال: «أحب أن أستأثر بهذا السر لنفسي من دون الناس جميعًا حتى من دونك.»

فنظر إليه أبوه نظر المُلِمِّ بما دار في نفسه ولم يُعاوده، وأعطاه صكوكًا بالمال الذي أراد، فأخذها وأرسلها إلى «مرغريت»، وأرسل معها كتابًا طويلًا ختمه بهذه الكلمة:

أما وقد عرفت أنني كنت أعيش مع امرأةٍ عاهرة ساقطة لا عهد لها ولا ذمام، فها هي ذي أجرة لياليك الماضية مرسلةٌ إليك.

ثم خرج ليعدَّ نفسه للسفر، فقضى اليوم كله خارج الفندق، ثم عاد إليه دُبُر النهار؛ فوجد فيه كتابًا باسمه ففضَّ ختامه، فإذا الأوراق التي أرسلها إلى «مرغريت» عائدة إليه كما هي وليس معها كلمة واحدة، فحاول أن يعيدها إليها مرة أخرى، فمنعه أبوه من ذلك وقال له: «قد وعدتني ألا تخالفني في أمرٍ، فلا بد لك من الإذعان.» فأذعن ثم سافرا معًا تلك الليلة إلى «نيس».

كذلك قضى الله أن يفترق ذلك الصديقان الوفيان والعاشقان المخلصان، فعاد الفتى إلى أحضان أبيه، وعادت الفتاة إلى حياتها الأولى التي كانت تأباها الإباء كله، وتخافها الخوف الشديد، وفي نفس كل منهما من الوجد بصاحبه والحسرة عليه ما لا تَنِيهِ، ولا تنتقص منه السنون والأعوام.

الأشقياء في الدنيا كثير، وأعظمهم شقاءً ذلك الحزين الصابر الذي قضت عليه ضرورةٌ من ضروريات الحياة أن يهبط بآلامه وأحزانه إلى قرارة نفسه فيودعها هناك، ثم يغلق دونها بابًا من الصمت والكتمان، ثم يصعد إلى الناس باشَّ الوجه باسم الثغر متطلقًا متهللًا، كأنه لا يحمل بين جنبيه همًّا ولا كمدًا.

ذلك كان شأن «مرغريت» بعد عودتها إلى حياتها الأولى، فقد أصبحت تعيش مع الناس بصورةٍ غير الصورة التي تعيش بها مع نفسها، أما حياتها مع الناس فحياةٌ ضاحكةٌ لاعبةٌ مرحةٌ وثَّابةٌ، تضيء المجامع والمحافل، وتملأ الأنظار والأسماع، فإذا ضمها مخدعها وخلا لها وجه الليل مرَّت أمام عينيها صورة تلك الساعات السعيدة التي قضتها بجانب «أرمان».

ثم ذكرت أنها قد أفلتت من يدها إفلات الطائر من يد صائده، وصارت بعيدة عنها بُعد الشمس عن يد متناولها، وأنها قد أصبحت تعيش بين أقوامٍ لا تعرفهم، ولا تجد في نفسها لذة الأنس بهم، ثم لا تجد لها بدًّا من مُمَاذَقَتِهم والتحبُّب إليهم والتجمُّل لهم بما يريدون ويشتهون، فتقبل الأفواه التي لا تشتهيها، وتعتنق القامات التي لا تطيق رؤيتها، وتشرب مع كل شارب، والشراب يحرق أحشاءها، وترقص مع كل راقص،

والرقص يمزق أوصالها، وتضحك ضحكات السرور من قلبٍ باكٍ، وتنشد أناشيد الهناء من فؤادٍ محترق.

فكأنها في يد الناس العُودُ في يد المغني يقطع أوتاره ضربًا ليطرب لنغماته، أو الزهرة في يد المقتطف يعصر أوراقها عصرًا لينعم بشذاها، فتهيجها ذكرى ذلك الماضي السعيد، وهذا الحاضر الشقي، فتطلق السبيل لزفراتها وعبراتها يصعد منها ما يصعد، وينحدر ما ينحدر، حتى تشتفي نفسها، فتقوم إلى خزانة ملابسها فتستخرج منها صورةً تضعها بين سحرها ونحرها، ثم تأوي إلى مضجعها فتجد برد الراحة في صدرها؛ لأنها صورة «أرمان».

ولم تَزَل تكابد من الشقاء في تلك الحياة الساقطة وآلامها ما لا طاقة لمثلها باحتمال مثله، حتى استيقظ في صدرها داؤها القديم بعدما نام عنها حينًا من الدهر، فهزل جسمها، وشحب لونها، وغاض ماء ابتسامتها، وانطفأ شعاع نظراتها، وشغلها شأن نفسها عن شأن المركيز، فلم يلبث أن ملَّها وفارقها، واستبدل بها أخرى غيرها، ثم اختلف عليها من بعده الأخلَّاء الرفقاء، فكان شأنهم معها شأنه، لا يلبث أحدهم أن يعرفها حتى يهجرها، فكسدت سلعتها في سوق الجمال، وطمع فيها من لم يكن يطمع قبل اليوم في لثم مواطئ أقدامها، وخلت منها المجامع والمحافل، ثم خلت من ذكرها وحديثها، وأعوزها المال إعوازًا شديدًا، فمدت يدها إلى ما كان باقيًا عندها من جواهرها ولآلئها فباعته، فلم يفِ بدَيْنها، فطلبت المعونة من كثير من أصدقائها الماضين، فأرسل إليها قليلٌ منهم القليل منها، فلم يغنِ عنها شيئًا.

واختلفت إليها جرائد الحساب يطلب أصحابها سداد ما فيها، فدافعتهم عنها حينًا ثم عجزت، فحجزوا على جميع مقتنياتها وذخائرها وأثاث بيتها ورياشه، ولَؤُمُوا في مقاضاتها لُؤْمًا ضاعف حزنها ومرضها، وقضى على بقية ما كانت تضمره في نفسها من الأمل في الحياة والسعادة فيها، فنسيت العالم خيره وشره، والحياة سعادتها وشقاءها، وأصبحت لا تفكر إلا في أمرٍ واحد تقوم وتقعد به ليلها ونهارها، وهو أن ترى «أرمان» ساعة واحدة قبل موتها، ثم تذهب إلى ربها.

ولم تكن قد كتبت إليه قبل اليوم كلمة واحدة مذ فارقها، ولا كتب إليها، فنهضت تتحامل على نفسها حتى وصلت إلى منضدتها فكتبت إليه هذا الكتاب:

تعالَ إليَّ يا «أرمان» راضيًا كنت أو غاضبًا، فإنني مريضةٌ مشرفةٌ على الموت، وأحب أن أراك قبل موتي، لأفضي لك بسر الذنب الذي أذنبته إليك فيما مضى،

> والذي لا تزال واجدًا عليَّ بسببه حتى اليوم، فلعلك تعفو عني في ساعتي الأخيرة فيكون عفوك ورضاك هو كل ما أتزوَّده من هذه الحياة لقبري، واذكر يا «أرمان» أن أول عاطفةٍ جمعت بيني وبينك وألَّفت بين قلبي وقلبك، كانت عاطفة الرحمة والشفقة، فها هي ذي الفتاة المريضة المسكينة التي رحِمتَها بالأمس وعطفتَ عليها قبل أن تحبها تدعوك اليوم أن ترحمها وتعطف عليها، وإن تكن قد سلوتها. أما كتابك الذي كتبته إليَّ قبل سفرك فقد اغتفرتُ لك كل ما فيه، حتى قولك إنني كنت كاذبةً في حبك، طامعةً في مالك؛ لأني أعلم أن المرأة التي تكذب الناس في حبها طول حياتها لا يمكن أن تجد من يصدقها إذا صدقت فيه، وعدلٌ من الله كل ما صنع.

ثم لبثت تنتظر حضوره أيامًا طوالًا فلم يأتِ، فأحزنها ذلك حزنًا شديدًا، وساء ظنها به، ووقع في نفسها أنه قد سَلَاهَا واطَّرَحَهَا، وأصبح لا يعبأ بها، ولا يبالي بحياتها أو موتها، وسعادتها أو شقائها، وكانت مخطئة فيما ظنت، فإن «أرمان» لم يطلع على الكتاب الذي أرسلته إليه مذ فارقها في العام الماضي وسافر إلى «نيس»، ولم يستطع البقاء فيها إلا أيامًا قلائل، ثم ملكه الضجر وأحاطت به الوحشة، وضاقت في وجهه مذاهب السلوى، فاستأذن من أبيه أن يسافر إلى بعض بلاد المشرق ترويحًا عن نفسه وتفريجًا من كربته، فأذن له، فسافر إلى الإسكندرية فأقام بها بضعة أشهر كاتَبَ أباه فيها قليلًا، ثم تركها وأخذ يتنقل في أنحاء البلاد لا ينزل ببلد حتى يطير به الضجر إلى غيره، فانقطعت رسائله عن أبيه، فأصبح لا يعلم مكان وجوده.

فلما أرسلت «مرغريت» إليه كتابها في «نيس» قرأه أبوه وحفظه عنده ولم يستطع أن يرسله إليه، و«مرغريت» لا تعلم بشيءٍ من ذلك، فحزنت لخيبة أملها حزنًا شديدًا، ودبَّ اليأس في قلبها دبيب الموت في الحياة، ووقع في نفسها أنها ستخرج من الدنيا فارغة اليد من كل شيءٍ حتى من هذه الأمنية التي بقيت في يدها من بين جميع آمالها الضائعة.

فتَنَكَّرَ شأنها، واستحالت حالها، ولجأت إلى صمتٍ طويل لا تقول فيه خيرًا ولا شرًّا، وأصبحت تنظر إلى نفسها وإلى ما يحيط بها من الأشياء كأنها تنظر إلى شيءٍ تنكره ولا تعرفه، فربما دخل عليها طبيبها وهي في أشد حالات ألمها فلا تشكو له ألمًا، أو سمعت ضوضاء الدائنين وصخبهم في فناء المنزل فلا تسأل ماذا يريدون!

وكانت إذا شعرت بقليلٍ من الراحة والسكون ركبت عربتها إلى «بوجيفال» فزارت البيت الذي قضت فيه أيام سعادتها الذاهبة، وكان لا يزال باقيًا على الصورة التي تركته

عليها يوم فارقته، ومرَّت بغرفه وقاعاته، وجلست في كل مكانٍ كانت تجلس فيه مع «أرمان»، وأشرفت من كل نافذة كان يشرف منها معها، وقبَّلت جميع آثاره وبقاياه، ولثمت الكأس التي كان يشرب بها، والزهرة التي كان يحبها، والقلم الذي كان يكتب به، والكتاب الذي كان يقرأ فيه.

فإذا نال منها التعب جلست على بعض المقاعد لتأخذ لنفسها راحتها، فربما طار بها خيالها إلى ذلك العهد القديم، فتمثَّل لها أن «أرمان» جالس تحت قدميها يسرد عليها حادثة من حوادث طفولته في «نيس»، أو يبثها ما يضمره لها في نفسه من الوجد والغرام، فتبتسم لحديثه ابتسام السعيد الهانئ، وتستشعر في نفسها لذةً لا يشعر بمثلها إلا المتقون في جنات النعيم، ثم تفتح عينها فلا ترى أمامها غير الوحشة والسكون، والوحدة والانفراد، فتبكي ما شاء الله أن تفعل، ثم تعود إلى بيتها في «باريس»، فتجلس على كرسيها بجانب منضدتها وتناجي «أرمان» في مذكراتها بجميع ما تحدثها به نفسها، كأنه حاضرٌ بين يديها يراها ويسمعها!

(١) مذكرات مرغريت

١٥ ديسمبر سنة ١٨٥٠

أرمان: لم تكتب إليَّ ولم تأتِنِي، كأنما ظننت أني أريد أن أستعيد معك عهد الماضي، وأين أنا من ذلك العهد؟! فلو رأيتني لرأيت امرأة ذاهبةً مدبِرة لا تصلح لشأنٍ من شئون الحياة، ولم يبقَ فيها من صورتها الماضية إلا كما بقي من الزهرة الساقطة عن غصنها بعدما عصفت الريح بأوراقها، وكل ما كنتُ أريده منك أن أراك بجانب فراشي في ساعتي الأخيرة؛ لأعتذر لك عن ذنبي الذي أذنبته إليك، ثم أنظر إليك نظرة وداع أغمض عليها جفني وأذهب بها إلى قبري.

ما أنا بخائنةٍ يا «أرمان» ولا خادعة؛ فإن الرسالة التي رأيتها في يدي يوم عدتَ إليَّ من مقابلة أبيك ليست رسالة المركيز كما ظننتَ، بل رسالة أبيك نفسه، وصلت منه قبل وصولك إلى «بوجيفال» بساعة واحدة، وهذا نصها الذي لا يزال عالقًا بذهني حتى الساعة:

سيدتي:

أريد أن أقابلك غدًا في منزلك من الساعة العاشرة صباحًا في شأن خاص بي وبك، وأريد ألا يكون «أرمان» حاضرًا تلك المقابلة ولا عالمًا بها، ولا بأني أرسلت هذه الرسالة إليك، ولي من حسن الرأى فيك ما يُطمعني في أن يكون ما سألتك إياه سرًّا بيني وبينك حتى نلتقي، والسلام.

دوفال

فلما قرأتها علمتُ ماذا يريد من تلك المقابلة، وشعرتُ بما وراءها، بل علمتُ بما دار بينك وبينه من الحديث، وأنك امتنعت عليه حتى يئس منك، فحاول أن يدخل عليك من بابي، فحدَّثتني نفسي أن أرفض مقابلته، وأن أكاشفك بكل شيءٍ، ثم استحييتُ من نفسي، وأكبرتُ أن يعتمد عليَّ رجل شريف كأبيك في كتمان سرٍّ بسيطٍ كهذا السر فلا يجدني عند ظنه، وطمعتُ في أن أنال منه عند المقابلة ما يطمع أن يناله مني، فكتمتكَ أمر الرسالة، وكتمتكَ ما في نفسي منها، ولم أكن كاذبةً في شكاتي وألمي حينما قلت لك في تلك الليلة إنني لا أستطيع البقاء بجانبك، وسألتك أن تقودني إلى مخدعي، فقد قضيت في فراشي بعدما فارقتك ليلةً لم أقضِ مثلها في جميع ما مر بي من ليالي الهموم والأحزان، حتى أصبح الصباح فألححت عليك أن تذهب لمقابلة أبيك، وأنا أعلم أنك إن ذهبت إليه لا تراه، ولا تنتفع بمقابلته إن رأيته، ولكني خفت أن يزورني فيراكَ عندي فأصغر في عينيه، ولا أَشَدَّ عليَّ من ذلك.

وما هي إلا لحظات قليلة حتى وصل إلى «بوجيفال» في الموعد الذي ضربه في كتابه، فاستأذن عليَّ فأذنت له، فدخل، فرأيت في عينيه جمرةً من الغضب تلتهب التهابًا، فلم أحفل بها، ودعوته للجلوس فلم يفعل، ولم يحيِّني بيده، ولا بلسانه.

وكان أول ما استقبلني به قوله: «ماذا تريدين أن تصنعي بولدي أيتها السيدة؟» وظل ناظرًا إليَّ نظرًا جامدًا ساكنًا لا يطرف ولا يختلج! فعجبت لمدخله الغريب، ونظراته المترفعة، ولهجته الجافة الخشنة، وامتعضتُ في نفسي امتعاضًا شديدًا حتى كدت أقول له — ولا أكتمك ذلك: «تذكر يا سيدي أنك في منزلي، وأنني لم أدعُكَ إلى زيارتي، بل أنت الذي دعوتَ نفسك بنفسك.»

ثم ذكرت مكانه منك فأمسكت عن كل شيءٍ، حتى عن الجواب على سؤاله، فمشى يضرب الأرض بعصاه وبقدمه حتى دنا مني، وألقى عليَّ تلك النظرة التي اعتاد الأشراف

المترفعون أن يلقوها في طريقهم على وجوه النساء العاهرات، وقال: «لقد أنفق ولدي عليك جميع ما كان بيده من المال، وكان في يده الكثير منه، ثم جميع ما أرسلته إليه بعد ذلك، وقد أرسلت إليه فوق طاقتي، فلم يبقَ في استطاعته أن يمدك بأكثر مما أمدكِ، ولا في استطاعتي أن أستنزل له من السماء ذهبًا يمطره عليك، فدعيه وشأنه، فالبلد مملوءٌ بالأبناء الذين لا يحتاج آباؤهم إليهم والذين لا يحتاجون إلى أنفسهم، أما أنا فإني في حاجة إلى ولدي؛ لأني لم أُرزق ولدًا سواه، ومن كانت بيده هذه الثروة من الجمال التي تملكينها لا يضيق به مذهبٌ من مذاهب العيش، ولا يتلوى عليه مأربٌ من مآرب الحياة.»

فسَرَتْ كلماته في نفسي سريان الحمى في عظام المحموم، وخُيِّل إليَّ أن هذا الماثل أمامي لا يحدِّثني، إنما يجرِّعني السمَّ بيده تجريعًا، وشعرتُ بذلةٍ لم أشعر بمثلها في يوم من أيام حياتي، إلا أنني تجلَّدت واستمسكت ورددت نفسي على مكروهها، وقلت له بصوت هادئ ساكن لا يمازحه غضبٌ ولا نزق: «لا يا سيدي، نعم إنني أحب ولدك، ولكني لا أطمع فيه، ولو كان الذي يعنيني منه الطمع في ماله لفارقته منذ ثلاثة أشهرٍ؛ أي منذ خلت يده من المال وأصبح لا يجد السبيل إليه بحالٍ من الأحوال، بل لفارقته قبل ذلك؛ لأن الذين لا يزالون يُساومونني في نفسي من أشراف هذا البلد ونبلائه منذ اتصلتُ به حتى اليوم أفضل منه وأكثر رغدًا، على أن ولدك لم ينفق عليَّ من هذا المال الذي تذكره إلا النزر القليل، وربما أنفق باقيه على نفسه، ولو استطعتُ أن أرفض ذلك القليل وآبَاهُ لفعلت، ولكني كنت أضنُّ به أن يداخل نفسه ما يريبها أو يؤلمها، فقبلتُ منه هداياه الصغيرة التي كان يقدمها إليَّ من حين إلى حين إرعاءً عليه، وإبقاءً على عزة نفسه وكرامتها، ولو أن ما كان بيده من المال انتقل إلى يدي — كما تقول — لأصبحت غنيةً موفورةً لا أحمل همًّا من هموم العيش، ولا أعاني من بأساء الحياة وضرَّائها ما أعانيه اليوم!

فإنني لو تبيَّنتَ أمري امرأةٌ فقيرةٌ معوزةٌ لا أملك من متاع الدنيا إلا حُلَاي ومركبتي وأثاث بيتي، وليتها كانت خالصةً لي، فقد أمتدت يد الضرورة إليها منذ عهد قريب، فأصبح الكثير منها سلعةً في يد المرابين، ولا أعلم ما يأتي به الغد، وإن أبيتَ إلا أن تعرف ذلك بنفسك فسأطلعك على ما كتمته عن الناس جميعًا حتى عن ولدك.» ثم قمت إلى خزانة أوراقي، فجئته منها بالصكوك والوثائق المشتملة على بيع ما بعت من جواهري، وخيولي وأثاث بيتي، ورهن ما رهنت منها، فظل يقلبها بين يديه ساعة، ويتأمل في

تاريخها طويلًا، ثم طواها وأعادها إليَّ مطرقًا صامتًا لا يقول شيئًا، ومد يده إلى كرسي بين يديه فاجتذبه إليه وجلس عليه معتمدًا برأسه على عصاه، وقد هدأت في نفسه تلك الثورة التي كانت تضطرم وتعتلج منذ دخوله، وطارت عن وجهه تلك الغبرة السوداء التي كانت تظلله من قبل.

فعدتُ إلى حديثي معه أقول: «على أنني يا سيدي غير شاكية ولا ناقمة، فقد مرَّ بي من نوب الأيام وأرزائها ما محا من نفسي كل شهوة من شهوات الحياة، وأنساني جميع مظاهر الدنيا ومفاخرها، فأصبحتُ لا أبالي بما تأتي به الأيام، وسواءٌ لدي الفقر والغنى، والحلي والعُطْل، وسكنى القصر وسكنى الكوخ، وركوب المركبة وركوب النعل.

وكل ما أرجو من حياتي وأضرع إلى الله وإليك فيه، أن أرى «أرمان» يُقاسمني همَّ الحياة وبؤسها، ويعينني على شدتها ولأوائها حتى يقضي الله في أمري بما هو قاضٍ.

فإن كان في الأجل فسحةٌ قضيتها في شكرك وحمدك، والإخلاص لك في سري وعلني، وإن كانت الأخرى كان آخر ما أنطق به في ساعتى الأخيرة أن أدعو لك الله تعالى ضارعة مبتهلة أن يبارك لك في نفسك، وفي أهلك، وأن يسبل ستره الضافي عليك في حاضرك ومستقبلك!»

ثم جثوت بين يديه وتعلَّقت بأهداب ثوبه، وقد عجزت في تلك الساعة عن أن أملك من دموعي ما كنت مالكةً من قبل، فظللت أبكي، وأقول: «رحماك يا مولاي، إنني امرأةٌ بائسة مسكينة قد قضت عليَّ بعض ضرورات العيش في فاتحة حياتي أن أقف على حافة تلك الهوة التي يقف على رأسها النساء الجائعات، فسقطت فيها كارهةً مرغمةً، ثم أردتُ نفسي على الرضا بتلك الحياة التي قدرها الله لي فلم أستطع، فأصبحت في منزلة بين المنزلتين، لا أنا شريفة أنعم بعيش النساء الشريفات، ولا ميتة القلب أسعد سعادة الفتيات الساقطات، وقد وجدتُ في ولدك الرجل الوحيد الذي أحبَّني لنفسي، ومنحني من وده وإخلاصه ما ضنَّ به عليَّ الناس جميعًا، فأنست به أنسًا أنساني سقوطي وعاري، وحَبَّبَ إليَّ الحياة بعدما أبغضتها وبرمت بها، وكدتُ أقضي على نفسي بالخلاص منها، فلا تحرمني جواره، ولا تفرِّق بيني وبينه، فإنك إن فعلت أشقيتني وبرَّحت بي، وملأت حياتي همًّا وكمدًا، وأنت أجلُّ من أن ترضى لنفسك بأن تبني سعادتك وهناءك على شقاء امرأة مسكينة مثلي.

ماذا يكون مصيري غدًا إذا أصبحتُ وحيدةً منقطعة في هذا العالم لا صديق لي ولا معين؟ أأعود إلى حياتي التي أبغضها وأخشاها، فأعود إلى جرائمي وآثامي؟ أم أقتل

نفسي بيدي فرارًا من شقاء الدنيا وبلائها، فأختم حياتي بأقبح مما ختم امرؤٌ به حياته؟ لا أستطيع واحدةً من هاتين، فامدد إليَّ يدك البيضاء وأنقذني من هذه الهوة العميقة التي لا يستطيع أحد أن ينقذني منها سواك.

أنا أعلم أنك في حاجة إلى ولدك، وأنك أولى به من كل مخلوق على وجه الأرض، ولكني أعلم أنك شفيقٌ رحيم لا تأبى أن تتصدق على امرأةٍ مريضة بائسة مثلي بساعات من السعادة تتعلل بها في مرضها الذي تكابده حتى يوافيها أجلها، لا أسألك يا سيدي مالًا ولا نسبًا ولا عَرَضًا من أعراض الحياة، بل أسألك أن تأذن لأرمان بالبقاء معي، فإن في بقائه بقاء حياتي وسعادتي، فتصدق بهما عليَّ إنك من المحسنين.»

وهنا شعرت كأنه يتحرك في كرسيه، فخفق قلبي، خفقانًا شديدًا، ثم رفع رأسه ونظر إليَّ نظرة أهدأ نارًا وأقصر شعاعًا من نظرته الأولى، وقال: «ومن أين تعيشان؟»

قلت: «عندي بقية من جواهري وحلاي سأبيعها وأعيش بثمنها معه في زاوية من زوايا «باريس» عيش الفقراء المقلِّين، لا يرانا أحد، ولا يشعر بوجودنا شاعر، وحسبنا الحب سعادةً نغنى بها عن كل سعادة في هذا العالم وهناء.»

قال: «ذلك هو الشقاء بعينه، فإن الحب نباتٌ ظِلِّيٌّ تقتله شمس الشقاء الحارة، وكل سعادة في العالم غير مستمدة من سعادة المال أو لاجئة إلى ظلاله فهي كاذبة لا وجود لها في سوانح الخيال.

أنتما اليوم سعيدان لأن في يدكما مالًا تعيشان به، ولأنكما تسكنان هذا المنزل البديع، فوق هذه الهضبة العالية، بجانب هذه البحيرة الجميلة، فإذا خَلَتْ يدكما من المال وحرمتما هذا النعيم الذي تنعمان به شقيتما وشغلكما شأن نفسيكما عن شأن الحب ولذائذه، وسرى إلى نفسيكما الضجر والملل، وربما امتدت تلك السآمة بينكما إلى أبعد غايتها.

إن للحب فنونًا من الجنون، وأقبح فنونه أن يعتقد المتحابان أن حبهما دائم لا تغيره حوادث الأيام، ولا تنال منه الصروف والغِيَر، ولو عقلا لعلما أن الحب لون من ألوان النفس، وعَرَضٌ من أعراضها الطائرة، تأتي به شهوة وتذهب به أخرى، ولا يذهب به المثل، مثل الفاقة إذا اشتدت واستحكمت حلقاتها، فإن النفس تطلب حياتها وبقاءها، قبل أن تطلب لذائذها وشهواتها!

أنا أعلم من شأن ولدى يا سيدتي ما لا تعلمين، وأعلم أنه لا يستطيع أن يعيش هذه العيشة النكداء التي تظنين، وهو فتى فقير لا يملك من الدنيا إلا قطعة صغيرة من

الأرض ورثها عن أمه لا تغني عنه ولا عنك شيئًا، وما أنا بذي ثروة طائلة أستطيع أن أحفظ له بها زمنًا طويلًا هذا العيش السعيد الرغد الذي يعيشه اليوم في «باريس»، فلم يبقَ بين يديه إلا أن يعيش بمالك، وهو ما لا أرضاه له ولا يرضاه لنفسه، واسمحي لي يا سيدتي أن أقول لك إن جميع مصائب الدنيا وأرزائها أهون عليَّ وعليه من أن يقول الناس إن خليلة أرمان دوفال قد باعت جواهرها وحلاها التي أهداها إليها عشاقها الماضون لتنفق ثمنها عليه.

سامحيني يا بنيتي، واغتفري لي حدتي وخشونتي، فإن شديدًا جدًّا على والدٍ شيخٍ مثلي أن يرى ولده الذي وضع فيه كل آمال بيته يهوي أمام عينيه في هذه الهوة السحيقة التي لا قرار لها دون أن يطير قلبه خوفًا وهلعًا.

إنه مذ عرفك نسيني ونسي أخته، فلا يذكرني ولا يذكرها، وقد مرضتُ منذ شهورٍ مرضًا أشرفت فيه على الموت، فكتبتُ إليه أن يأتي ليعودني فلم يفعل، ولم يردَّ على كتابي؛ أي إنني كنت على وشك أن أموت ولا أراه، ولو تم ذلك لذهبت إلى قبري بحسرةٍ لم يحمل مثلها في صدره راحلٌ عن الدنيا قبلي!

أنت صادقةٌ يا سيدتي في قولك إنه لم ينفق عليك جميع ما كان بيده من المال؛ لأنني علمت بالأمس أنه قامر منذ عهد قريب، وخسر في مقامرته كثيرًا، كما علمت أنك لا تعلمين شيئًا من ذلك، فما يؤمنني إن أنا تركته في هذا البلد ألا يستمر في هذه الغواية الجديدة التي خطا الخطوات الأولى في طريقها، ولا يخسر في بعض مواقفه خسارة عظمي؟ لا أجد لي بدًّا من أن آخذ بيده فيها، فأقدم إليه ذُخْرَ شيخوختي، ومهر ابنتي، فنهلك نحن الثلاثة في يوم واحد.

من أين لك يا بنيتي أنه إن طال عهده بك لا يَمَلُّكِ، ولا تمتد عينه إلى امرأةٍ سواك، فتكون فجيعتك فيه غدًا شرًّا من فجيعتك فيه اليوم؟ ومن أين له أنك لا تضيقين ذرعًا يومًا من الأيام بعيشة الوحشة والوحدة فتحنين إلى حياتك الأولي، حياة الأنس والاجتماع، والضوضاء واللَّجَب، وهو فتى غيورٌ مستطارٌ، فربما أَنِفت نفسه أن يزاحمه فيك مزاحمٌ، وربما امتدت يده بشرٍّ إلى ذلك الذي يزاحمه، فتنازلا، فأصابته من يد مُنازله ضربةٌ تقضي على حياته وتفجعني فيه؟

كيف يكون موقفك يا سيدتي غدًا إن نفذ فيه هذا السهم من القضاء أمام هذا الأب الثاكل المسكين إذا جاءك يسألك عن دم ولده؟ وكيف تكون آلام نفسك ولواعجها أمام مشهد بكائه وتفجعه؟»

ثم ارتعش ارتعاشًا شديدًا، وظل نظره حائرًا مضطربًا كأنما يُخَيَّل إليه أنه يرى أمام عينيه ذلك المنظر الذي يتحدث عنه، ثم سكن قليلًا، ونظر إليَّ نظرة هادئة مملوءة عطفًا وحنانًا، وأنشأ يقول: «مرغريت، أنت أعظم في عيني مما كنتُ أظن، وأكرم نفسًا من أولئك النساء اللواتي يزعمن أنك واحدةٌ منهن، وقد وجدتُ فيك من فضائل النفس ومزاياها ما لم أجده إلا قليلًا في أفذاذ الرجال، وأقل من القليل في فضليات النساء، ولو قُسِّم الشرف بين النساء على مقدار فضائلهم وصفاتهم لكان نصيبك منه أوفر الأنصبة وأوفاها.

لا أنسى لك يا «مرغريت» ما دمت حيًّا كتمانك أمر الكتاب الذي أرسلته إليك، واحتفاظك بسره في ساعة تنفرج فيها الصدور عن مكنوناتها، ولا سكوتك وإغضاءك — وأنتِ في منزلك وموضع أمرك ونهيك — أمام حدَّتي وخشونتي وجنون غضبي، ولا بَذْلَكِ ما بَذَلْتِ من ذات نفسك وذات يدك لولدي — من حيث لا يعلم — وفاءً له وإبقاءً على عزة نفسه وكرامتها!

لقد كانت ضَحِيَّتُكِ التي قدمتها لولدي بالأمس عظيمة جدًّا، واليوم جئتك أطلب إليك أن تقدمي ضحيةً أعظم منها لابنتي، ولا معتمد لي أعتمد عليه في تلبية رجائي عندك إلا شرف نفسك وفضيلتها.

لقد تركت «سوزان» ورائي تتقلب على فراش المرض، وتكابد منه فوق ما يحتمل جسمها الناشئ الغض؛ لأن خطيبها الذي تحبه حبًّا جمًّا قد هجرها منذ شهرين فلا يزورها ولا تراه، وقد كنت أجهل قبل اليوم سبب مرضها إلا الظن والتقدير، حتى سهرتُ بجانب فراشها ليلة كانت الحمى فيها قد نالت منها منالًا عظيمًا، ووصلتْ بها إلى درجة الخبل والهذيان، فسمعتها تهتف باسم خطيبها مراتٍ كثيرة، وتبكي كلما جرى ذكره على لسانها كأنها حاضرة مستفيقة، فعلمتُ موضع دائها، وذهبت في اليوم الثاني إلى والد ذلك الخطيب أسأله عما راب ولده من أمر ابنتي وقطعه عن زيارتها، فذكر لي سببًا غريبًا لك فيه يا سيدتي بعض الشأن، فإن أذنتِ لي حدثتك حديثه.»

فخفق قلبي خفقانًا شديدًا، وأحسست بالشر يدنو مني رويدًا رويدًا، إلا أنني تماسكت وقلت له: «نعم آذن لك يا سيدي.» قال: «لقد أجابني الرجل على سؤالي بقوله: «إن أسرتي أسرةٌ شريفة لا تُصاهر إلا أسرةً شريفةً مثلها من جميع وجهها، وقد عرفتُ أسلوب المعيشة السافلة التي يعيشها ولدك في «باريس»، إنه يُعاشر منذ عهد طويل امرأةً مومسًا معروفة هناك معاشرةَ تهتُّكٍ وتبذُّل يشهدها الناس جميعًا، ولا أسمح لنفسي أن

يكون مثل ولدك في تبذله واستهتاره، وصغر نفسه وفُسُولَتِهَا صهرًا لولدي ولا عارًا على بيتي.» فاستقبلت خشونته وجفاءه بصبرٍ واحتمالٍ؛ لأن الخوف على ابنتي شغلني عن الغضب لنفسي، وقلت له: «أواثقٌ أنت مما تقول؟» فأدلى لي بما أقنعني، فلم أرَ بدًّا من أن أُسَلِّمَ له بصواب ما فعل، وسألته ألا يبتَّ في أمر الخطبة شيئًا حتى أسافر إلى «باريس» وأعود منها.

ذلك ما حملني على المجيء إلى «باريس»، وهذه هي قصتي التي جئت أعرضها عليك، وأنتظر حكمك فيها، وقد كتمتها عن الناس جميعًا حتى عن ولدي «أرمان»، فانظري ماذا تأمرين؟»

وهنا أطرق برأسهً طويلًا، ثم رفعها، فإذا عَبرة تترقرق في عينيه، وإذا هو يحاول الكلام فلا يستطيعه، فرحمتُهُ مما به، وأعظمتُ مصابه حتى نسيتُ مصابي بجانبه، وساد السكون بيننا ساعةً لا يقول لي شيئًا، ولا أدري ماذا أقول، حتى هدأ ثائره قليلًا، فمد يده إلى يدي فأخذها بين ذراعيه، وعاد إلى حديثه يقول: «مرغريت، إن حياة ابنتي بين يديك، فامنحيني إياها تتخذي عندي يدًا لا أنساها لك حتى الموت.

إنني لا أستطيع أن أراها تموت بين يدي، ولم تم ذلك لمتُّ على أثرها حزنًا وكمدًا، وضمَّنا في يومٍ واحدٍ قبرٌ واحد؛ لقد رأيت مصرع أمها منذ خمس سنين، ولا يزال أثره باقيًا في نفسي حتى اليوم، ولا أستطيع أن أرى هذا المشهد مرة أخرى في ابنتها وصورتها الباقية عندى من بعدها.

إنني أحبها حبًّا جمًّا، ولا أستطيع أن أراها في ساعة من ساعاتها حزينة أو مكتئبة، فكيف أن أراها تُعالج سكرات الموت؟!

إنك لا تعرفينها يا «مرغريت»، وأعتقد أنك لو رأيتها لأحببتِهَا كما أحبها، ولرحمتِهَا كما أرحمها، ولفديتِهَا بما تستطيعين رأفةً وإشفاقًا عليها.

إنها جميلةٌ جدًّا، وبيضاء مثل الكوكب، وطاهرة طهارة الملك، وغريرة غرارة الطفل، فاسمحي لهذه الحياة الغضة الزاهرة بالبقاء والسعادة، فإنها لا تستحق الشقاء.

إنها اليوم تعيش بالأمل الذي أودعته قلبها يوم سفري، فإن عدت إليها بالخيبة عدت إليها باليأس القاتل والقضاء النازل!

إنك تحبين «أرمان» يا «مرغريت»، وقد أصبحت أعتقد أنك مخلصةٌ في حبه إخلاصًا عظيمًا، فاصنعي ما يصنع المحبون المخلصون، وضحِّي حبك من أجله ومن أجل مستقبله، فإلا تفعلي ذلك من أجله فافعليه من أجلي.

لقد قلتِ لي إنه الرجل الوحيد الذي أحبك لنفسك أكثر مما أحبك لنفسه، فبادليه هذا الحب، بل كوني خيرًا منه فيه، وليكن عزاؤك عما تلاقيه بعد فراقه من حزن وألم أنه قد أصبح سعيدًا من بعدك، وأنكِ قد أنقذتِ من يد الموت فتاةً مسكينة، ومن يد الشقاء شيخًا حزينًا.» وهنا اختنق صوته بالبكاء فهبط من على كرسيه بين يدي، وقال بنغمة المشرف المحتضر: «ارحميني يا «مرغريت» واشفقي على ضعفي وشيخوختي، وتصدقي عليَّ بمستقبل ولدي وحياة ابنتي.»

ثم لم يستطع أن يقول بعد ذلك شيئًا، فألقى رأسه على كرسيه الذي كان جالسًا عليه وانفجر باكيًا.

آه لو رأيتني يا «أرمان» في موقفي هذا، ورأيت لوعتي وتفجعي ودموعي المنهمرة على خدي انهمار الدِّيَمةِ الوَطْفَاء رحمةً بأبيك وإشفاقًا عليه!

لقد كان يتكلم فتسيل مدامعي مع حروفه وكلماته، كأنما هو ينشد مرثية محزنة، أنا المبْكِيَّة عليها فيها!

إن العظيم عظيمٌ في كل شيء، حتى في أحزانه وآلامه، فلقد كان يُخيل إليَّ وأبوك يبكي بين يدي وينتحب أن كل دمعة من دموعه تستنزل غضب الله على الأرض، وكل زفرة من زفراته تلتهب بها آفاق السماء.

لقد أكبرتُ في نفسي جدًّا أن يجثو مثل هذا الشيخ الشريف الطاهر بين يدي فتاة ساقطة مثلي، واستحييتُ من ذلك حياءً تمنيتُ معه أن لو انشقت الأرض تحت قدمي فسِخْتُ فيها أبد الدهر.

وبينما هو مطرق صامت أخذت أفكر فيه وفي مصابه، وفي قصته التي قصها عليَّ، وفي الشأن الذي لي فيها، فعلمت أني قد أصبحت شؤمًا على هذه الأسرة السعيدة جميعها، أبيها وابنها وابنتها، فثقلت نفسي عليَّ، وسمج منظرها في عيني، حتى خيل إليَّ أنها لو كانت حاضرة بين يدي لرميت بها من حالقٍ إلى حيث لا يجمعني وإياها مكان بعد اليوم.

ثم قلت في نفسي: إن حياتي الماضية التي قضيتها في الشرور والآثام قد قطعت عليَّ طريق الشرف، فلا حق لي في أن أطمع في حياة الشرفاء، ولا أن أنازعهم سعادتهم وهناءهم، وإن الإثم الذي اقترفتُهُ في ماضيَّ قد أثمته وحدي، فلا بد لي أن أستقل بعبئه دون أن ألقيه على عاتق أحدٍ غيري، فإن كان مقدَّرًا عليَّ أن أموت موت النساء الساقطات، فذلك لأنني امرأةٌ ساقطة، أو ألاقي في مستقبل حياتي شقاءً وآلامًا، فذلك لأن المستقبل نتيجة الماضي وثمرته الطبيعية.

هنا ذكرتك يا «أرمان»، وذكرت فراقك وكيف أستطيعه، وذكرت أنا التي سأتولى قتل نفسي بيدي؛ لأن الطريق التي لا طريق غيرها إلى بلوغ رضا أبيك وموافاة رغبته أن أقاطعك وأغاضبك، وأظهر أمامك بمظهر الخائنة الغادرة، وربما اضطررت إلى الاتصال بغيرك على مرأى منك ومسمع، حتى تنصرف عني انصراف يائسٍ مغلوبٍ على أمره من حيث لا يكون لأبيك مدخل في ذلك، فأكون قد جمعتُ على نفسي بين فراقك وغضبك في آنٍ واحد، وذكرت أن لا بد لي متى فارقتُكَ أن أعود إلى حياتي الأولى التي أبغضها وأمقتها؛ لأن الدوق «موهان» لم يستطع أن ينسى ذنبي الذي أذنبته إليه حتى اليوم، ولأني في حاجة إلى بسطةٍ من العيش أستعين بها على معالجة مرضي ووفاء ديني، فدارت هذه الخواطر في رأسي ساعة، وطالت دورتها حتى كادت تغلبني على أمري، ثم وقع نظري على وجه أبيك المخضل بدموعه، فتجلدتُ وجمعتُ أمري ومضيتُ قدمًا لا ألوي على شيءٍ مما ورائي.

لقد كان شديدًا عليَّ جدًّا أن أفارقك يا «أرمان»، ولكن كان أشد عليَّ منه أن أرى أباك يبكي بين يدي، وأن أكون سببًا في موت أختك أو شقائها.

إنني أحب يا «أرمان» وأعرف آلام الحب ولوعته في النفوس، ولقد كان يُخيل إليَّ وأبوك يحدثني عن أختك وشقائها أنني أراها من خلال دموعي طريحة فراشها، وهي تمد يدها إليَّ ضارعة متوسلة تقول: أنقذيني يا سيدتي وارحمي ضعفي وشبابي. فأجد لكلماتها من الأثر في نفسي ما لا يستطيع أن يشعر به إلا من كان له شأنٌ مثل شأني.

إنني حُرِمت في مبدأ حياتي السعادة الزوجية وهناءها، ولقيت بسبب ذلك من الشقاء ما لا أزال أبكيه حتى اليوم، فلا يهيج حزني ولا يستثير كامن لوعتي مثل أن أرى بين الناس فتاةً محرومة السعادة مثلي.

إنني أحب وهي تحب، ولا بد لواحدةٍ منا أن تموت فداءً عن الأخرى، فلأَمُتْ أنا فداءً عنها؛ لأنها أختك، ولأنها لم تقترف في حياتها ذنبًا تستحق بسببه الشقاء.

وكنت كلما ذكرت أنها ستصبح سعيدةً هانئة من بعدي — وتراءى لي شبحها وهي لابسة ثوب عرسها الأبيض الجميل، وسائرة إلى الكنيسة بجانب خطيبها — طار قلبي فرحًا وسرورًا، وهان عليَّ كل شيء في سبيل غبطتها وهنائها.

نعم إن الضربة التي سأستقبلها شديدةً جدًّا، لا يقوى عليها قلبي، ولكني سأحتملها بصبرٍ وسكون؛ لأن أباك سيصبح راضيًا عني، ولأنك ستعلم في مستقبل الأيام سرَّ تضحيتي، فتحبني فوق ما أحببتني! ولأن أختك ستصبح سعيدة مغتبطة بعيشها وحبها، وسيكون اسمي بين الأسماء التي تدعو لها الله في صلواتها بالرحمة والرضوان.

جاءت الساعة التي أقول فيها لأبيك كلمتي الأخيرة، ولقد كانت شديدة هائلة، أسأل الله أن يغفر لي بما لقيت فيها من الآلام، ماضي ذنوبي وآتيها، كما أسأله ألا يذيق مرارتها قلب امرأة على وجه الأرض من بعدي!

قمتُ من مكاني كأنني أنتزع نفسي من الأرض انتزاعًا، ومشيت إلى أبيك كما يمشي الحائِن إلى مصرعه حتى جثوت بين يديه، وأخذت بيده، فاستفاق من غشيته ونظر إليَّ ذاهلًا مشدوهًا، فقلت له: «أتعتقد يا سيدي أنني أحب ولدك؟» قال: «نعم.» قلت: «حبًّا هو منتهى ما تستطيع امرأة أن تحتمل؟» قال: «نعم.» قلت: «وأن هذا الحب هو كل آمالي وسعادتي وما أملك في الحياة؟» قال: «نعم يا بنيتي.» قلت: «قد ضحَّيتُهُ من أجل ابنتك، فعد إليها وبشرها بسعادة المستقبل وهنائه، وقل لها إن امرأةً لا تعرفك، ولم ترِك في يوم من أيام حياتها، ولكنها تُحبك وتُشفق عليك، تموت الآن من أجلك، فاسألي الله لها الرحمة والغفران.»

فتهلَّل وجهه بشرًا وسرورًا، ولم يدع كلمة من كلمات الشكر والثناء إلا أفضى بها إليَّ، فأنساني سروره واغتباطه ألم الضربة التي أصابت كبدي، واستحال حزني واكتئابي إلى راحةٍ وسكون، فحمدت الله على أن لم يَرَ في وجهي في تلك الساعة ما ينغص عليه سروره واغتباطه.

وهنا شعرت بحركةٍ عند باب الغرفة، فالتفتُّ فإذا «برودنس» تشير إليَّ بيدها؛ فذهبت إليها فأعطتني كتابًا جاء به البريد، فقرأت عنوانه، فإذا هو بخط المركيز «جان فيليب»، فعلمت ما يتضمنه قبل أن أراه، ووقع في نفسي أن الله قد أوحى إليَّ بما أفعل، فذهبتُ مسرعةً إلى غرفة مكتبي أخاف أن يعرض لي في طريقي ما يزعزع عزيمتي، وهناك قرأت الكتاب وكتبت لصاحبه في بطاقة صغيرة هذه الكلمة: «سأتعشى عندك الليلة.» ثم أعطيتها برودنس لتلقيها في صندوق البريد.

وعدت إلى أبيك فوجدته حيث تركته، فقلت له: «إن «أرمان» لا يعلم شيئًا من أمر زيارتك هذه، فاكتمها عنه حين تلقاه، وسأكتب إليه كتاب مقاطعة لا يشك في أني صاحبة الرأي فيه، وأن لا يد لك فيما كان، وسيعلم اليوم أو غدًا أنني قد اتصلت برجلٍ غيره، فيرى أنني قد خنته وغدرت بعهده، فلا يجد له بدًّا من أن يسافر معك قاطعًا رجاءه مني، وربما تألَّم لهذه الصدمة بضعة أيام أو بضعة أسابيع، فلا تحفل بذلك، فسيبلى حبي في قلبه كما يبلى كل حب في كل قلب. غير أن لي عندك طلبةً واحدة لا أريد منك سواها، فهل تسمح لي بها؟»

قال: «نعم أسمح لك بكل شيء.» قلت: «إني مريضة، وإن العلة التي أكابدها كثيرًا ما يتحدث الناس عنها أنها لا تترك صاحبها — طالت أم قصرت — حتى تذهب به إلى قبره، فكل ما أسألك إياه أن تأذن لأرمان في اليوم الذي تعلم فيه أنني قد أصبحتُ على حافة قبري أن يأتيني لأراه وأودِّعه الوداع الأخير، وأعتذر له عن ذنبي الذي أذنبته إليه حتى لا أخسر حبه واحترامه حية وميتة.»

فنظر إليَّ نظرة دامعة، وقال: «وا رحمتاه لك يا بنيتي! إنني أعدك بما أردتِ، وأسأل الله لك الشفاء والعزاء.» ثم حاول أن يعرض عليَّ شيئًا من المعونة، فأبيت ذلك إباءً شديدًا، وقلت له: «إنني لم أَبِع نفسي يا سيدى بيعًا، بل وهبتها هبةً.» فأخذ رأسي بين يديه وقبلني في جبيني قبلة كانت خير جزاءٍ لي على تضحيتي التي ضحيت بها، وودعني ومضى.

فما ابتعد إلا قليلًا حتى قمت إلى خزانتي، فجمعت ثيابي وما بقي لي من حُلَاي ووضعتها في حقيبتي، وسافرت مع «برودنس» إلى باريس، وذهبت إلى منزلي هناك، فكتبت إليك فيه ذلك الكتاب الذي تعلمه، والله يعلم كم سكبتُ من الدموع، وكم وقف قلبي بين كل كلمة وما يليها أثناء كتابته حتى أتممته، فأعطيتُهُ حارس المنزل وأوصيته أن يسلمه إليك عند مجيئك، ثم ذهبت للوفاء بعهد المركيز.

أما حياتي مع ذلك الرجل فلا أستطيع أن أقص عليك منها شيئًا سوى أن أقول لك إنه لم يَرَ فيَّ المرأة التي كان يتخيلها، ويمنِّي نفسه بها، ولم أرَ فيه الرجل الذي يُؤنسني ويخلط نفسه بنفسي، فافترقنا، فأصبحت لا أعرف لي في العالم صديقًا صادقًا ولا كاذبًا.

هذه قصتي يا «أرمان» كما هي، وهذا ذنبي الذي أذنبته إليك، فهل ترى بعد ذلك أني خائنة أو خادعة؟

قلبي يحدثني أنني سأموت قبل أن أراك، وأملي يُخيل إليَّ أن ما في نفسك من المَوْجِدَة عليَّ لا يستمر إلى ما بعد الموت، وأنك ستعود إلى «باريس» في الساعة التي ينعاني لك فيها الناعي لتزور قبر تلك المرأة المسكينة التي تولَّت سعادة قلبك وهناءه حقبةً من أيام حياتك، ثم خرجتْ من الدنيا فارغة اليد من كل شيءٍ، حتى من حبك وعطفك، وربما بلغ بك الاهتمام بشأنها أن تحاول معرفة ما تم لها من بعدك إلى أن ذهب بها الموت إلى قبرها.

فهأنذا أكتب هذه المذكرات، وأتركها لك عند «برودنس» لعلك تقرؤُها في مستقبل الأيام، فتنظر إليها كما تنظر إلى كتاب اعترافٍ مقدس قد ألبسه الموت ثوب الطهارة والبراءة، فتُصَدِّق ما فيها وتعفو عني، فينير عفوك ظلمات قبري، ويؤنس وحشة نفسي.

٣ يناير ١٨٥١

أين أنت يا «أرمان»؟ أنت بعيد عني جدًّا، بعيد بجسمك وبقلبك؛ لأنك لم تهمل كتابي الذي كتبته لك ودعوتك فيه لزيارتي وسماع اعترافي الأخير إلا لأن ما كان في نفسك من العتب والموجدة عليَّ قد استحال إلى نسيانٍ وإغفال، فأصبحتَ لا تذكرني كما يذكر المحب حبيبه، ولا تعطف عليَّ كما يعطف الصديق على صديقه، فليكن ما أراد الله، ولتَدُمْ تلك السعادة التي تنعم بها بين أهلك وقومك، فإني غير واجدةٍ عليك، ولا ناقمة منك شيئًا، ولا حاملة لك في نفسي إلا الحب والإخلاص والرضا بكل ما تأتي وما تدع.

لي عدة أيام لم أرَ فيها أحدًا من الناس؛ لأن الطبيب منعني من الخروج، ولأن أصدقائي الذين كانوا يعرفونني فيما مضى قد أصبحوا يقنعون من زيارتي بإرسال بطاقاتهم إليَّ مع خادمتي، ثم ينصرفون مسرعين كأنما يفرون من أمرٍ يخيفهم، ولقد كانوا قبل اليوم إذا أرسلوها لبثوا ينتظرون الساعات الطوال حتى آذن لهم بالمقابلة، فإذا ظفروا بها طاروا بها فرحًا وسرورًا، وإن حرموها عادوا آسفين محزونين!

ولا أدري لِمَ لا يقطعون بطاقاتهم كما قطعوا زياراتهم؟ فإن كانوا يظنون أنهم سيرونني بينهم في مستقبل الأيام صحيحة الجسم، طيبة النفس، أصلح للمعاشرة والمخادنة كما كانوا يعهدونني من قبل، فهم في ظنهم مخطئون.

لقد أحسنوا فيما عملوا، فإنني أصبحت لا آنس بأحدٍ في العالم سوى نفسي، ولا آنس بنفسي إلا لأني أستطيع متى خلوتُ بها أن أُسائلها عنك فتذكِّرني بك وبتلك الأيام السعيدة التي قضيتها معك في «بوجيفال»، وذكرى تلك الأيام هي العزاء الباقي لي عن جميع ما خسرتْ يدي.

ما كنت أظن يا «أرمان» أن جسم الإنسان يحتمل كل هذه الآلام التي أكابدها، فلقد تمر بي ساعات أعتقد فيها أن الألم الذي أكابده إنما هو ألم النزع، وأنني في الساعة الأخيرة من ساعات حياتي، فإذا استفقت قلت في نفسي: هذا ألم المرض، وقد عجزت عنه، فمن لي باحتمال ألم الموت؟

على أن نفسي تحدثني أحيانًا أنه إن قُدِّر لي أن أراك بجانبي في يوم من الأيام برئتُ من مرضي، وتراجعت نفسي وعُدت إلى راحتي وسكوني، فهل يُقدر لي الله ذلك؟

لا أعلم، فالمستقبل بيد الله، فليقدر الله ما يشاء وليفعل ما يريد.

٢٤ يناير ١٨٥١

لم أُفارق سريري منذ أيام طوالٍ إلا صباح هذا اليوم، فجلست قليلًا بجانب نافذتي، وأشرفت منها على الحياة العامة، فوقع نظري على كثير ممن كنت أعرفهم من قبل سائرين في طريقهم لاهين مغتبطين، ولم أَرَ بينهم من رفع نظره إلى نوافذ غرفتي مرة واحدة، كأنما يمرون ببيتٍ لا يعرفونه، ولا عهد لهم به من قبل.

ما أشد وحشتي! وما أضيق صدري! وما أثقل هذا الجدار الذي يدور حولي!

لا أطيق النظر إلى سريري؛ لأن نفسي تحدثني أنه سيكون عما قليل سُلَّم قبري، ولا الوقوف أمام مرآتي؛ لأنها تحدثني عن نفسي أسوأ الأحاديث وأشأمها، ولا الإشراف من نافذتي؛ لأنها تذكرني بحياتي الماضية السعيدة التي حيل بيني وبينها، فأين أذهب وكيف أعيش؟

لا آكل إلا طعامًا واحدًا، ولا أرى إلا منظرًا متكررًا، ولا أسمع إلا صوت طبيبي وخادمتي حينما يسألها عني صباح كل يوم ومساءه فتجيبه بجواب واحد، حتى مللت وسئمت، وأصبحت أشعر أن نفسي سجينةٌ في صدري سجن جسمي في غرفتي، وربما مرَّت بي ساعات يقف فيها ذهني عن التفكير وخاطري عن الحركة، وينقطع ما بيني وبين يومي وأمسي وغدي وكل شيء في الحياة حتى نفسي.

السعال يهدم أركان صدري هدمًا، والنوم لا يلم بعيني إلا قليلًا، والطبيب يعذبني بمشارطه وضماداته عذابًا أليمًا، وكل يوم أشعر أن نَفَسي يزداد ضيقًا، وبصري يزداد ظلمةً، وأن الحياة تبعد عن ناظري شيئًا فشيئًا، حتى أكاد أحسبها شبحًا من الأشباح النائية، فمتي ينقضي عذابي؟!

٣٠ يناير ١٨٥١

سمعت صباح اليوم لجبًا كثيرًا في فناء المنزل، فسألت «برودنس»: «ما الخبر؟» فذهبت وعادت إليَّ تبكي، وتقول: «إنهم يحجزون أثاث المنزل يا سيدتي.» فقلت: «دعيهم يفعلوا ما يشاءون.» وما هي إلا لحظات قليلة حتى دخلوا غرفتي مندفعين متصايحين، ولم يمرَّ بخاطر واحد منهم أن يرفع قبعته عن رأسه احترامًا لصاحبة المنزل، أو يخفض صوته إشفاقًا على المريضة المعذَّبة، فمشوا يُسجلون كل ما وقع نظرهم عليه، وخِفتُ أن يسجلوا دفتر مذكراتي، فأشرت إلى «بردونس» أن تخفيه عنهم، ففعلتْ، فحمدتُ الله على

ذلك، ثم وصلوا إلى سريري، فطلب أحد الدائنين حجزه، وقال: «إنه ثمين، سيكون له يوم البيعِ شأن عظيم.» فأفهمه الحاجز أن القانون يستثني الأسرَّة وفراشها، وألقى في أذنه كلمةً أحسب أني سمعته يقول فيها: «إنك تستطيع أن تفعل ذلك بعد موتها!» ثم انصرفوا بعدما تركوا على باب بيتي حارسًا لا يفارقه ليله ونهاره.

فكتبت إلى «الدوق موهان»، وهي أول مرة كتبت إليه فيها أستغفر ذنبي الذي أذنبته إليه، وأشكو له ما نالته يد الأيام مني، وأستحلفه بذكرى ابنته الكريمة عليه أن يأتي لزيارتي، ففعل، فبكى عندما رآني، ولا أدري هل بكاني أو ذكر عند رؤية مصرعي مصرع ابنته الأخير فبكاها، ثم قضى بجانب فراشي ساعة مطرقًا صامتًا لا يحدثني إلا قليلًا، ولا يذكر الماضي بكلمة واحدة، ثم ترك في يد «برودنس» ضمة أوراق، استبقت بعضها للنفقة واستعانت بباقيها على تأجيل بيع الأثاث بضعة أشهر.

لا أستطيع أن أكتب إليك اليوم أكثر مما كتبت، فإن الطبيب ما زال يلح على جسمي بالفَصْد حتى أوهاه واستنزف دمه، فأصبحت لا أتحرك حركةً إلا شعرت بألم عظيم.

٢ فبراير ١٨٥١

إن هذا اليوم أسعد أيامي وأهنؤها، فقد وصل إليَّ من أبيك كتابٌ هذا نصه:

سيدتي:

إني أتوجع لك توجعًا شديدًا، فقد علمتُ بالأمس من بعض الوافدين إلى «نيس» أنك مريضةٌ مرضًا شديدًا منذ شهرين، وأنك لا تخرجين من منزلك إلا قليلًا، فأسأل الله لك الشفاء والعزاء، وأضرع إليه أن يجزيك خيرًا بما قاسيتِ من الآلام والأوجاع في سبيلي وسبيل ابنتي، وأبشِّرك أن الله قد تقبَّل قربانك الذي قدمتِهِ إليه، فإن «سوزان» قد تزوَّجت من خطيبها منذ عشرين يومًا، وأصبحت هانئة بحبها وعيشها كما أردتِ لها، وإنها وإن لم تكن تعلم من أمر تلك القصة التي نعلمها شيئًا فقد قلت لها إن بعض الناس — ولم أسمِّه لها — قد ضحَّى بنفسه وبسعادته في سبيل سعادتك وهنائك، فلا تتركي الدعاء له في جميع صلواتك بجزيل الأجر وحسن المثوبة، فهي لا تزال تدعو لك صباحها ومساءها أن يُحسن الله إليك كما أحسنتِ إليها.

أما الكتاب الذي أرسلتِهِ إلى «أرمان» في أوائل الشهر الماضي فلم يصل إليه إلا اليوم؛ لأنه منذ فارقك وسافر إلى «نيس» لم يستطع البقاء فيها إلا

بضعة أيام، ثم رحل عنها إلى الشرق حزينًا مهمومًا من أجلك، وكنت لا أعرف الجهة التي يُقيم فيها، فلم أستطع أن أرسله إليه حتى عرفتُهَا منذ أيام قلائل، فأرسلتُهُ وأرسلتُ معه كتابًا أطلعه فيه على قصتك، وأقول له إنني لا أرى مانعًا يمنعني بعد زواج أخته من أن آذن له بالسفر إلى «باريس» والبقاء فيها ما شاء أن يبقى، وأحسب أن يصل إليك في عهد قريب.

أرسلت إليك مع كتابي هذا عشرة آلاف فرنك أرجو أن تقبليها مني، وأن تنظري إليها بالعين التي تنظر بها الفتاة إلى هدية أبيها الذي يحبها ويجلها، فإن فعلتِ أحسنتِ إليَّ بذلك إحسانًا عظيمًا!

لي الأمل أن أسمع عما قليل خبر شفائك، وأرجو أن أراك في مستقبل الأيام ناعمة بصحتك وسعادتك.

دوفال

فما قرأته حتى شعرت بهزة من السرور في قلبي، لم أشعر بمثلها مذ فارقتُكَ حتى اليوم، فقد علمتُ أن «سوزان» قد تزوجت، وذلك ما كنت أرجو لها، وأنك لا تزال تحبني، وقد أخاف نسيانك أكثر مما أخاف عَتْبَك، وأنني سأراك عما قليل، وتلك آمالي في الحياة.

أما الهدية التي أرسلها إليَّ أبوك فقد نظرت إليها بالعين التي أرادها، فقبلتها شاكرةً له حامدة، أحسن الله إليه كما أحسن الله إليَّ.

٣ فبراير ١٨٥١

استطعت أن أنام ليلة أمس أكثر من كل ليلة؛ لأن السرور الذي تركه كتاب أبيك في نفسي شغلني عن كل شيء، حتى عن ألمي، وفي الصباح قال لي طبيبي: «إنك اليوم خير منك في كل يوم، وإن الشمس مشرقة، والهواء فاتر عليل، فاخرجي في مركبتك إلى بعض المتنزهات ساعة ثم عودي.»

فخرجت إلى غابات «الشانزلزيه»، فرأيتها زاهرةً بالحياة والجمال، ورأيت الناس فيها ضاحكين متهللين، مغتبطين بسعادة لا يعرفون قيمتها كما تعرفها امرأة محرومة منها مثلي، فلم أحسدهم على نعمتهم التي آتاهم الله، بل دعوت لهم ببقائها ودوامها، إلا أنني حزنت على نفسي حزنًا شديدًا حينما رأيت أن كثيرًا من معارفي الماضين قد مروا على مقربةٍ مني ولم يعرفوني، ورأيت أحدهم ينظر إليَّ — وقد مر بجانب مركبتي — نظر

المتخيل المتوهم، ثم لم يلبث أن لوى وجهه عني ومضى لسبيله، وقد استقر في نفسه أنه يرى امرأة غير المرأة التي يعرفها.

فعلمت أني قد تغيرت تغيرًا عظيمًا، وأن مرآتي ما كانت تكذبني حينما تحدثني عن نحولي واصفراري، واستحالة صورتي، بل صدقتني كما صدقني الناس.

ثم رأيت الشمس قد توارت وراء حجابها فعدتُ إلى منزلي، وقد زال من نفسي ذلك الخاطر الذي أحزنني، وحلَّ محله خاطرٌ آخر خيرٌ منه، وهو أنني سأراك عما قليل.

«وسينقضي بلقائك عهد بؤسي وشقائي.»

٧ فبراير ١٨٥١

ما أحسب أنك مدركي يا «أرمان»، فقد بلغت بي العلة منتهاها، وأصبحتُ لا أجد الراحة في قيامٍ ولا قعود، ولا نومٍ ولا يقظة، وانتشرت الآلام والأوجاع في جميع أعضائي ومفاصلي، وكأن حجرًا من الأحجار العاتية ممتدٌّ على صدري يمنعني التنفس والحركة، وقد عجزت اليوم عن أن أنتقل من سريري إلى مكتبي، فأمرتُ «برودنس» أن تأتيني بمحبرتي ودفتري حيث أنا، فجاءت بهما إليَّ، فأنا الآن أكتب إليك وأنا في فراشي؛ فمتى أراك يا «أرمان» لأحيا برؤيتك أو أودعك قبل أن أموت؟

١٠ فبراير ١٨٥١

أملي في الحياة ضعيف جدًّا، ها هو ذا الموت يدنو مني رويدًا رويدًا، لم تأتِ إليَّ حتى الساعة يا «أرمان»، وأظن أني سأموت قبل أن أراك، إن الموت مخيف جدًّا، يملأ قلبي رعبًا وهولًا، لا أعلم كيف أستطيع أن أسكن وحدي تلك الحفرة الموحشة المظلمة التي لا أنيس لي فيها ولا سمير. لم أتمتع بالحياة طويلًا، وكانت كل سعادتي فيها آمالًا وأحلامًا، وهأنذا أموت قبل أن أرى شيئًا من آمالي وأحلامي.

ما أحلى الحياة وأمرَّ فراقها! لم أَنَل منها طائلًا، ولكني لا أحب أن أتركها، لقد سعد الذين يعمَّرون في الحياة طويلًا، ثم يموتون فيتركون من بعدهم ذرية صالحة أو عملًا طيبًا يعيشون به بعد موتهم زمنًا أطول مما عاشوا، أمَّا أنا فإني سأموت في ربيع حياتي، وسيموت ذكري في الساعة التي أموت فيها، وكأني لم أَعِش في الحياة يومًا واحدًا، وا أسفاه على ما فرطتُ في حياتي الماضية! إنني أدفع اليوم ثمن ذنوبي وآثامي أضعافًا مضاعفة!

لقد كنت أستطيع أن أقنع بالمضغة والجرعة، ولا أمد عيني إلى ما تقصر عنه يدي فلم أفعل، فهأنذا لا أسيغ المضغة ولا الجرعة، ولا أجد السبيل إلى العيش على أية صورة كانت.

أهكذا أخرج من الدنيا غريبة عنها كما دخلت فيها لا يحضر موتي قريب، ولا يبكي عليَّ صديق؟! أهكذا تنتهي حياتي في الساعة التي أحببتها فيها وأصبحت على مرحلة واحدة من أحلامي وآمالي؟!

آه لو يمهلني الموت قليلًا! فربما كنتَ على مقربةٍ مني، فأنظر إليك نظرةً واحدة ثم أموت، لا أمل لي في ذلك، فقد رأيت طبيبي صباح اليوم يلقي في أذن خادمتي وهو خارج من عندي كلمة، فسألتها عنها، فدارت حولها ولم تقلها، وما أحسبها إلا تلك الكلمة الهائلة. لا أكاد أبصر شيئًا مما حولي حتى بياض الصحيفة التي في يدي، كنتُ قبل اليوم أنفث الدم وحده، والآن أنفث أفلاذ رئتي مصبوغة بالدم.

من لي بكأسٍ من السم أشربها جرعةً واحدة فأستريح من هذا العذاب الذي يُساورني؟ ولكن أي فائدة لي من ذلك؟

ها هو ذا الموت يمشي إليَّ بأسرع مما أمشي إليه … رحمتك اللهم وإحسانك، فأنت وحدك العالم بمقدار ألمي وعذابي، فارحمني وهَوِّنْ عليَّ أمري، وامنحني إحدى الراحتين.

لا أرى شيئًا، ولا أعرف ماذا أقول، وربما كانت هذه الكلمات آخر ما تخطُّه يدي!

١٤ فبراير ١٨٥١

لا تحزن عليَّ كثيرًا بعد موتي يا «أرمان»، فحسبي منك أن تذكرني ولا تنساني، وأبشِّرك أن الله قد استجاب لدعائي، فألقى في نفسي منذ الأمس برد الراحة واليقين، ومحا من قلبي جميع مخاوفه ووساوسه، فعلمتُ أنه قد رضي عني، وغفر لي ذنبي، وأصبحت لا أخشى الموت ولا أخاف بعده، ولا أجزع من الألم، ولا أبكي أسفًا على الحياة، فلا يحزنك أمري حين تعلمه، وعِشْ سعيدًا بين قومك وأهلك، وأَكرِم أباك فهو خير الآباء، وأَحبِبْ أختك فهي أطهر الفتيات، وأوصيك خيرًا ببرودنس، فهي فتاة طيبة القلب، عظيمة الإخلاص لي ولك، وأخاف أن يتنكر لها الدهر من بعدي.

إن الله قد خلق لكل روح من الأرواح روحًا أخرى تماثلها وتقابلها، وتسعد بلقائها وتشقى بفراقها، ولكنه قدَّر أن تضل كل روح عن أختها في الحياة الأولى، فذلك شقاء الدنيا، وأن تهتدي إليها في الحياة الثانية، وتلك سعادة الآخرة.

فإن فاتتني سعادتي بك في الأرض، فسأنتظرها في علياء السماء!

وهنا كتبتْ بعض كلماتٍ مضطربة، قد محا الدمع أكثرها فلم يبقَ منها واضحًا بعض الوضوح إلا كلمة «الوداع»!

(٢) بقية المذكرات (بقلم الخادمة برودنس)

١٤ فبراير ١٨٥١

لم تستطع «مرغريت» يا سيدي أن تكتب لك أكثر مما كتبت؛ لأن الطبيب منعها الحركة، ولو أرادتها لعجزت عنها.

أتذكر يا سيدي ذلك الجسم الغض الناعم، الذي كان يموج بالنور موجًا ويشرق وراء بشرته إشراق الخمر في كأسها؟ لقد أصبح اليوم عظمًا مجلدًا وهيكلًا قائمًا لا يساوي ثمن النظر إليه!

وا رحمتاه لكِ! لقد مات كل شيءٍ فيها إلا قلبها وشعورها، وليتهما ماتا معها، فإنه لا يعذبها شيء مثل خواطرها وأفكارها!

لا يدخل من باب غرفتها داخلٌ حتى ترفع نظرها إليه تظن أنك قد جئتها، فإذا دنا منها ورأته أطبقت جفنيها على دمعة تنحدر من بينهما بالرغم منها.

إنها لا تتكلم كثيرًا، فإذا تكلمت كان أول حديثها: «ألم يأت «أرمان»؟» فإذا أجبتها أن لا، سألت عن أمرٍ آخر تتلهى به، أو عادت إلى صمتها مرة أخرى.

لقد رابها اليوم أن طبيبها لم يأتها، فلما أردتُ أن أعتذر لها عنه لم تصدقني، وقالت: «الآن عرفت كلمته التي ألقاها إليك بالأمس.» فسَكَتُّ، ولم أعرف ماذا أقول.

١٤ فبراير ١٨٥١

أصبح اليوم صوتها ضعيفًا جدًّا لا أكاد أسمعه، وأظلم بصرها، فهي تنظر إليَّ ولا تراني، وقد أشارت إليَّ في الصباح مرارًا أن أفتح لها نوافذ الغرفة لتستنشق الهواء وتروح عن نفسها، ونوافذ الغرفة مفتوحة يجري منها الهواء متدفقًا، ولكنه لا يصل إلى صدرها.

آه لو أستطيع يا سيدي أن أبيع حياتي لأشتري لها بضعة أنفاس تتردد في صدرها، أو بعض سِنَاتٍ من النوم تأوي إلى جفنها، فإن تنفسها يؤلمني ويعذبني عذابًا شديدًا، وقد مرت بها ثلاث ليالٍ لم تنم فيها لحظة واحدة!

١٥ فبراير ١٨٥١

بعد صمتٍ طويل لم تنطق فيه بحرفٍ واحد فتحت عينيها، ونادتني بصوتها الخافت الضعيف، فدنوت منها، فقالت لي: «أريد الكاهن، فأتِيني به.» فعلمت أنها قد أصبحت على يقين من أمرها، فغالبتُ عَبراتي حتى خرجت من الغرفة، فبكيت ما شاء الله أن أفعل، ثم ذهبت إلى الكاهن فتردد عندما ذكرت له اسم المرأة التي يريد الذهاب إليها، فضرعت إليه وقلت له: «إن رحمة الله يا سيدي لا يستحقها أحد مثل الآثمين المسرفين.» فأذعن بعد لأيٍ وجاء معي، فخلا بها ساعةً ثم خرج، فسألته: «أيرحمها الله يا سيدي؟» قال: «إنها عاشت عيش الآثمين، ولكنها ستموت موت المؤمنين.» فحمدتُ الله على ذلك.

ومنذ تلك الساعة لم أعد أسمع منها كلمة واحدة، ولا أرى عضوًا من أعضائها يتحرك، إلا ما كان في صدرها يترجح بين الصعود والهبوط.

١٥ فبراير – ساعة الغروب

إن مرغريت تتعذب كثيرًا يا سيدي، وأحسب أنها تعالج سكرات الموت.

لم يُقاسِ إنسانٌ في حياته مثل ما تقاسيه الآن من آلامها وأوجاعها، إنها تصرخ من حينٍ إلى حينٍ صرخات تذوب لها حبات القلوب.

ولقد اشتد بها الألم الساعة فهبَّت من مكانها صارخةً، وانتصبت على قدميها في سريرها حتى كادت تسقط عنه، فأدركتُها وأضجعتُها في مكانها، ففتحتْ عينيها فسقطت منهما دمعتان كبيرتان، وكأنما أحسَّت بي فاعتنقتني وضمتني إليها ضمًّا شديدًا، ثم ما لبثت أن تراخت يداها وعادت إلى نزاعها وجهادها.

١٥ فبراير – نصف الليل

قُضي الأمر وماتت «مرغريت»، ولم يبقَ منها على سريرها إلا جثتها التي ستذهب غدًا إلى قبرها، تلك غايتها وغاية كل حيٍّ، فصبرًا على قضاء الله وبلائه!

لقد هتفتْ باسمك كثيرًا يا سيدي في ساعتها الأخيرة، وكان آخر عهدها بالحياة أن نظرت إليَّ نظرةً طويلة مملوءة حزنًا ودموعًا! ثم حركت أصبعها حركة خفيفة، وأشارت إلى دفتر مذكراتها الذي كان ملقى بجانبها وقالت: «أرمان.» ففهمت أنها توصيني أن أبلغه إليك، ثم أسلمتْ روحها.

عزيزٌ عليَّ يا سيدتي ما لقيتِ من العذاب قبل موتك، وعزيزٌ عليَّ أن تموتي، ولا تجدي بجانبك من يغمض عينيك ويلقي رداءك عليك سواي! وفي سبيل الله تلك النفس الطاهرة الكريمة التي ما حملت في حياتها شرًّا لمحسن، ولا لمسيء، وذلك الصدر الرحب الذي كان يسع الدنيا بأرضها وسمائها فلا يضيق عنها، وذلك القلب النقي الأبيض الذي ما أضمر في حياته غير الخير أو الإحسان، ولا فاض إلا بالرحمة والحنان!

بكت «برودنس» بجانب جثة سيدتها ما بكت، ثم أنارت حولها الشموع، وبعثت إلى الكاهن فجاء وجثا عند رأسها يقرأ في كتابه، ومشت هي إلى المكتب فجلست إليه تكتب آخر مذكراتها حتى فرغت منها.

ثم قامت من مكانها، فراعها أن رأت شبحًا ماثلًا على باب الغرفة، فمشت إليه فإذا هو «أرمان» في لباس السفر، وقد ألقى من مكانه على سرير الميتة نظرة غريبةً هائلة كتلك النظرة التي تسبق صرعات الجنون، ثم استردها وألقاها عليها، وسألها: «من هذا المسجى على هذا السرير؟» فبكت «برودنس» ولم تقل شيئًا، فسقطت حقيبته من يده، وجمد في مكانه لحظة لا ينطق ولا يتحرك.

ثم اندفع إلى سرير الميتة صارخًا يريد أن يلقي بنفسه عليه، فأدركته «برودنس»، ووقف الكاهن في وجهه، وقال له: «احترم الموت أيها الفتى.» فاختنقت عبراته في صدره وارتعد ارتعادًا شديدًا وسقط مغشيًّا عليه.

فلم يستفق إلا مطلع الفجر حينما شعر أنهم قد أقبلوا يحملون الجثة، فقام يتحامل على نفسه حتى دنا من السرير، وقال: «رحمةً بي أيها الناس، فقد فاتني أن أودعها وهي حية، فأذنوا لي أن أودعها ميتة!»

فرحموه وأفرجوا له عنها حتى داناها، ورفع الغطاء عن وجهها وقبلها في جبينها، وقال: «الوداع يا أعز الناس عندي! الوداع يا خير فتاةٍ في الأرض، وأشرف روحٍ في السماء!» ثم أعاد الغطاء على وجهها، وتراجع عنها وأَذِنهم بحملها.

ثم مشى وراء نعشها يبكي وينتحب، ولم يمشِ وراء النعش غيره وغير الخادمة «برودنس»، والدوق «موهان»، وهو يتوكأ على عصاه، ويقول في ندبه وبكائه: «هأنذا أرى ابنتي تموت أمامي مرة أخرى، ولا أزال حتى الساعة على قيد الحياة، وبعض نسوة بائسات من ضحايا تلك المقادير.»

وما انقضى النهار حتى انقضى كل شيء، وأصبحت «مرغريت» رهينة قبرها، و«أرمان» طريح فراشه يقرأ في مذكراتها ويبكي بكاء الثاكل المفجوع.

ثم اشتد به المرض بعد ذلك، فلم تَرَ «برودنس» بدًّا من أن تكتب إلى أبيه تشرح له سوء حاله، فحضر وحضرت معه ابنته وزوجها، ولبثوا بجانبه شهرًا يعللونه ويَشْتَفُون له حتى أَبَلَّ ونجا من خطره.

ثم ذهبوا جميعًا إلى قبر مرغريت ليودعونها قبل سفرهم، فبكوا حوله بكاءً شديدًا، وكانت «سوزان» أشدهم بكاءً عليها، وإن كانت لا تعلم أنها تبكي المرأة التي ضحت بنفسها في سبيلها.

ثم تقدم المسيو «دوفال» إلى ولده وقال له: «أتغفر لي ذنبي يا بني؟»

قال: «نعم يا أبتاه؛ لأنها غفرت لك ذنبك إليها.» ثم انصرفوا.

مرت الأيام وانقضت الأعوام، ومات المسيو «دوفال»، وسَعِدَ ولده كما أراد له أبوه، ولكن بقيت بين جنبيه لوعةٌ مُعْتَلِجَةٌ، لا يروحها عنه كلما ساورته إلا قراءة مذكرات «مرغريت»، ومحادثة «برودنس» عنها وزيارة قبرها من حينٍ إلى حين.